@ketab_n
18.9.2015

دموع القاتل

آن-لور بوندو

ترجمة: عبد الرؤوف الحباشي

www.kutub-pdf.net

آن-لور بوندو

دموع القاتل

ترجمة: عبد الرؤوف الحباشي

دار بلومزبري - مؤسسة قطر للنشر
BLOOMSBURY
QATAR FOUNDATION
PUBLISHING

مؤسسة قطر
Qatar Foundation

Twitter: @ketab_n

www.kutub-pdf.net

دموع القاتل

Twitter: @ketab_n

www.kutub-pdf.net

دار بلومزبري - مؤسسة قطر للنشر
مؤسسة قطر
صندوق بريد ٥٨٢٥
الدوحة، دولة قطر

www.bqfp.com.qa

دار بلومزبري - مؤسسة قطر للنشر
BLOOMSBURY QATAR FOUNDATION PUBLISHING
مؤسسة قطر
Qatar Foundation

كلمة بلومزبري وعلامة ديانا هما علامتان مسجلتان باسم شركة بلومزبري للنشر.

صدرت الطبعة الأولى عام ٢٠١٥

LES LARMES DE L'ASSASSIN ©ANNE-LAURE BONDOUX, 2003
All rights reserved.

حقوق الترجمة ©عبد الرؤوف الحباشي، ٢٠١٥
لوحة الغلاف ©جون فوردهام (JOHN FORDHAM)، ٢٠١٤

جميع الحقوق محفوظة.
لا يجوز استخدام أو إعادة طباعة أي جزء من هذا الكتاب بأي طريقة بدون الحصول على الموافقة الخطية من الناشر باستثناء في حالة الاقتباسات المختصرة التي تتجسد في الدراسات النقدية أو المراجعات.

الترقيم الدولي:
الغلاف العادي: ٩٧٨٩٩٩٢١٧٩٠٢٤

٢٤٦٨١٠٩٧٥٣١

MIX
Paper from responsible sources
FSC® C020471
FSC
www.fsc.org

تمت الطباعة في بريطانيا العظمى بمعرفة CPI Group (UK) Ltd, Croydon CR0 4YY.

زورونا على موقعنا www.bqfp.com.qa للمزيد من المعلومات حول كُتّابنا ومؤلفاتهم.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

١

هنا، لم يَصِل أحدٌ قَطُّ بمحض الصُّدفة. فهنا نهاية العالم، أقصى جنوب «تشيلي» هذا الذي يمتدُّ شريطًا مثل نسيج الدانتيل داخل مياه المحيط الهادئ الباردة.

على هذه الأرض كان كل شيء قاسيًا، مُوحشًا، قد فعلت فيه الرِّيح فِعلها حتى بدا الحَجر نفسه كأنه يتألم. وعلى الرغم من ذلك، وعلى مَشارف الفلاة والبحر، برز بناءٌ صغيرٌ رماديُّ الجُدران: إنها ضيعة «آل بولوفاردو».

كان المُسافرون الذين يبلُغون المكان يَعجبون لوجود هذا المنزل الآهِل فيه. فكانوا ينحدرون إليه عبر الطريق، ويطرقون الباب طالبين ضيافةَ ليلة. وغالبًا ما كان المُسافر عالمًا، أو جيولوجيًّا حاملًا معه صندوق حصًى، أو فلكيًّا باحثًا عن ليل أدهم، وقد يكون في بعض الأحيان شاعرًا، وبين الحين والآخر بائع مُغامرات مُستكشفًا.

كانت كل زيارة تُعدُّ حَدثًا نظرًا لنُدرتها. وكانت السيدة «بولوفاردو» بيديها المرتعشتين تسقي الزائر من جرَّة قد تَقشَّر

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

سطحها. أما السيد «بولوفاردو» فكان يجتهد ليتبادل مع الغريب بعض الكلام كي لا يبدو فَظًّا، ولكنه كان فَظًّا على الرغم من كل شيء. وأما المرأة فكانت تسكب النبيذ إلى جانب الكأس. وأما الرِّيح فكانت تصفِّر بشدة من خلال الشبابيك المُفككة حتى يخال المرء أنه يسمع عُواء الذِّئاب.

إثر ذلك، وحينما يُغادر المُسافر، يُوصد الرجل والمرأة بابهما مُتنفسَيْن الصُّعداء. فيعودان إلى سالف وحدتهما، على هذه الأرض المُوحشة، بين الحِجارة وعنف الطبيعة.

كان لآل بولوفاردو طفل، وهو صَبي وُلِد من دون حُب يُذكَر، وكان ينمو كما ينمو كل شيء على هذه الأرض؛ أي ليس على أكمل وجه. كان يمضي أيامه مُتعقبًا الثَّعابين، وكان التُّراب يتجمَّع تحت أظافره، وأذناه قد برزتا لفرط ما تعرَّضتا لهبوب الرِّيح، وكانت بشرته صفراء جافةً، وأسنانه بيضاء كحبات الملح، وكان يُسمى «باولو». «باولو بولوفاردو».

إنه هو مَن لمح الرَّجل مُقبلًا، من بعيد، في الطريق، ذات يوم حار من شهر يناير.

وهو مَن هرع إلى أبويه مُنبهًا إياهما إلى أن غريبًا قد أقبل، ولكنه لم يكن هذه المرَّة لا جيولوجيًّا ولا تاجر أسفار ولا حتى شاعرًا، إنما كان «أنخل أللِيجريا». وهو صعلوكٌ محتالٌ سفَّاحٌ. وكغيره لم يكن قد وصل إلى هذا المنزل في أقصى الأرض بمحض الصُّدفة.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أخرجت المرأة جرَّتها، وتقاطعت نظراتها ونظرات أنخل أليليجريا. كانت عيناه صغيرتين غائرتين في محجريهما وكأنهما قد تعرَّضتا للكْم، عينين تقرأ فيهما الشَّر الصرف. ارتعشت المرأة أكثر من المعتاد. سأل زوجها الجالس على المقعد قُبالة الصعلوك: «هل ستمكث هنا طويلًا؟»

رد الرجل: «نعم...» وغمس شفتيه في النبيذ.

في الخارج كانت الغيوم تتراكم من جهة البحر، وكان باولو قد ابتعد عن المنزل منتظرًا انهمار المطر، رافعًا وجهه إلى السماء، فاغرًا فاه. كان كما دواب هذه الأرض دائم العطش، غريزي السلوك، نهمًا. وقد مثَّله الشعراء الذين زاروا المكان ببذرة زُرعت على صخرة قُدِّر لها ألَّا تزهر أبدًا. كان عبارةً عن تلعثم أو مُجرَّد غمغمة إنسانية.

ولما كانت أولى القطرات ترتطم بالغبار وبلسان باولو، استل أنخل أليليجريا سكِّينه، وأغمدها في حنجرة الرجل، ثم في حنجرة المرأة، وعلى الطاولة امتزج النبيذ بالدم امتزاجًا احمرَّت له أثلام الخشب العميقة إلى الأبد.

لم تكن هذه جريمة أنخل الأولى. لقد كانت للموت سوق رائجة هناك من حيث أتى؛ فهو الحل النهائي للديون، ومعارك السكارى، وخيانات النساء، ومكر الجيران، أو حتى لرتابة يوم دون تسلية، ولكنه هذه المرَّة كان حلًّا نهائيًّا لأسبوعين من التطواف؛ فقد أعيا أنخل النوم في العراء، والهرب كل صباح ما أمكنه الوسع

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

باتِّجاه الجنوب. وكان قد سمع أن هذا المنزل هو الأخير قبل الفلاة والبحر، إنه الملجأ المثالي لرجل مُطارد: فهنا كان يطلب النوم.

لما عاد الصَّبي باولو مُبلَّلًا بللًا شديدًا، رأى والديه مُمددين على الأرض، وسرعان ما أدرك ما وقع. كان أنخل في انتظاره وسكِّينه في اليد. قال له: «تعالَ إلى هنا.»

لم يُبد باولو حِراكًا. ظل يحدق في نصل السِّكين المُلطخ بالدم، وفي اليد وهي تشد على المقبض، وفي الذراع التي لا ترتجف. بدا المطر على سطح الصفيح كأنه ينقر طَبلًا كما في السيرك قبل أن يقفز أحد البهلوانات قفزةً خطيرةً. سأل أنخل الصَّبي: «كم عُمرك؟»

«لا أعرف.»

«هل تعرف كيف تُعد الحَساء؟»

شد الرجل على مقبض سكِّينه جيدًا، ولكنه لم يحزم أمره؛ فالصَّبي صغير جدًّا، شديد الاتِّساخ، مُبلَّلٌ بللًا شديدًا، وهو يقف هنا، أمامه، ولكنه لم يستطع تصوُّر قتله. هي صحوة ضمير غير منتظرة قد كبلت ذراعه، أو لعله شيء من الشفقة، ثم قال له: «لم أقتل طفلًا قَطُّ.»

رد الصَّبي: «ولا أنا كذلك.»

انتزعت هذه الإجابة ابتسامةً من أنخل: «هل تعرف كيف تُعد الحَساء؟ نعم أم لا؟»

«أعتقد نعم.»

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أخفى أنخل سكِّينه. لقد أبقى على حياة هذا الصغير وهو يشعر بشيء من الارتياح، وكان يقول في نفسه إنه غير مُضطرٍّ إلى قتله؛ فالصَّبي لن يقف حائلًا بينه وبين المبيت هنا، ثم إنه قد يرسله إلى البئر حتى يجلب الماء بدلًا من أن يسعى بنفسه إليها، وقد يكون ذلك في حد ذاته مُجديًا.

توجَّه باولو إلى داخل البيت، ودلف إلى حُجيرة مُظلمة كانت أمه تدَّخر فيها مؤنًا قليلةً، وسرعان ما خرج منها ومعه بضع حبات من البطاطس، وكراث، ولفت، وقطعة من لحم الخنزير المقدد. وعلى الرغم من أنه لم يطبخ حَساءً قَطُّ فإنه كان يعرف كيف يُعَدُّ، إذ كثيرًا ما كان يراقب أمه حتى حفظ ذلك عنها دون مساعدة. ولم يكن عليه إلا أن يُقلِّد حركات أبيه حتى يُوقد النار. وكان ذلك عليه هينًا.

ولما انتهى من إعداد الحَساء التفت ناحية أنخل أليليجريا. فقال له القاتل: «صُب لي الحَساء.»

جلب باولو أكبر زبادي أبيه المعدنية ثم وضعها على الطاولة، بعيدةً عن بقعة الدم والنبيذ. وصب فيها الحَساء. قال له أنخل آمرًا: «لتأكل معي.»

فجلب باولو زبديةً ثانيةً هي زبديته الأصغر حجمًا والأكثر كدمات. صب لنفسه بعض الحَساء، واتخذ المقعد قُبالة الرجل الذي كان قد شرع في الاحتساء مُصدرًا أصوات تَرَشُّفٍ. كف المطر عن الهطول، ولم يكن المنزل باردًا بفضل النار المُضطرمة في المدفأة. ومن وراء النافذة كان الليل يزحف كبحر من السَّواد.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

علق في الهواء، مُنذرًا بغمر المنزل وإغراق العالم، فأشعل باولو شمعدانًا، وقال له أنخل: «فلتأكل إذن.»

بدا الحَساء لذيذًا، ولم تكف نظرات الصَّبي عن أن تقع على الجسدين الهامدين المُمدَّدين أرضًا. طوق الزبدية بكفيه، لكنه ما كان يقدر أن يحملها إلى فمه. التفت القاتل ونظر بدوره إلى الجثتين: «أهذا ما يقطع عنك الشَّهية؟»

أشار باولو بحركة أن نعم، فنهض أنخل عن مقعده وأطلق زفرةً: «حسنًا.»

وفتش الحجرة الصغيرة فعثر فيها على مجرفة. وقال: «هلم، أحتاج أن تُضيء لي المكان.»

أخذ باولو مصباح العواصف فأشعله، ثم خرج في الظلمة مع الرجل الذي رآه وهو يجر جسدي والديه على الحصى، فقال له مُنبهًا: «الأرض قاسية!»

لم يقل ذلك جزافًا، فقد استغرق أنخل من الوقت ساعتين لحفر حفرة لا تكاد تسع الجثتين. كانت المجرفة تصطدم بالأحجار والجذور. وكان مقبضها يدمي يديه.

وأخيرًا تمكَّن من أن يضع الجثتين في الحفرة، ثم سدَّها، وكدَّس التراب على الأَكَمة، وبحركة لاإرادية مسح جبينه، إذ كانت الرِّيح الآتية من البحر تجفف جلده، مما جعله لا يعرق إلا قليلًا. ثم قال للصَّبي: «أأنت راضٍ الآن؟»

كان باولو ينظر إلى القبر رافعًا المصباح إلى مستوى وجهه. ود

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

للحظة لو يُدفن هو كذلك تحت هذا التراب، كي ينام هناك، لكنه كان يُدرك أن ليس له الحق في ذلك لأنه لم يمت [بعد]. بات يُميِّز جيدًا أنه في هذا العالم، وعلى هذه الأرض الضائعة، وحدهم الموتى يعرفون الراحة، أما الأحياء، من الناس، فليس لهم إلا أن يعضوا على النواجذ ليتحمَّلوا الوجود. كانت تلك هدية أنخل لباولو: إنها حياة، لكن أي حياة؟

قال الرجل: «تعالَ إلى هنا! لم يعد ثمَّة ما يمكن أن تنظر إليه، والحَساء قد برد.»

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

Twitter: @ketab_n

www.kutub-pdf.net

٢

كان أنخل أللِيجريا مُطاردًا من شرطة «تالكاهوانو» و«تيموكو» و«بويرتو ناتاليس»؛ ففي هذه المدن الثلاث كان قد سلب عجائز، وتحيل على شباب، وقتل كل من لم ينصعْ له، ولم يكن لضحاياه وجوه في ذاكرته، بل إنه هو نفسه لم تسنح له الفرصة حتى ينظر إلى وجهه في المرآة. كان عالمه يزدحم بأطياف وظلال مخيفة يزيحها جانبًا كما يطرد الواحد منا أسراب الذباب.

كان أنخل أللِيجريا قد شهد وهو صغير موت أبيه. أما أمه فلم يكد يعرفها. عَوَّل على نفسه مُبكرًا ليحيا مُتبعًا قانون الشارع والأرصفة والبؤس.

لم يكن له من شيء قَطُّ سوى سكِّينه وقوته البدنية، ومالٍ مسروقٍ ينسرب من بين أصابعه كماء السَّيل.

اعتقد مرَّةً أو مرَّتين أنه أحب امرأةً دون أن يُلطف ذلك من مزاجه؛ فقد انتهت هذه القصص كغيرها إلى مأساة، وفرار عبر السلالم الخلفية؛ فلم يكن أنخل أللِيجريا شخصيةً يمكن التعويل عليها، فما بالك إذا تعلَّق الأمر بتربية طفل.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

وعلى الرغم من ذلك ها هو يعيش مع باولو في هذا المنزل بأقصى الأرض مُطوقًا بالرِّيح والأنواء والثلوج والسماوات. ولم تكن لباولو الصغير الجاهل الخِيَرَة من أمره؛ فقد استقر القاتل ببيته، وكان عليه أن يتكيَّف مع الوضع.

كان كلاهما يجتهد في فلح مزرعة الخضر، وإطعام الدَّجاج والماعز، وكان باولو يُعد الحَساء، وظل أيضًا يتصيَّد الثَّعابين، ولكن بوتيرة أقل من السابق، لأن أنخل كان يكره أن يراه ينبش بين الأحجار، وكان يقول له: «ستُلدغ يومًا ما وستندم على هذا الهوس القذر!»

إن ما كان يشغل بال أنخل حقًّا هو معرفة سن الصَّبي على وجه التحديد؛ فجسده الهزيل ليس دليلًا يمكن الوثوق فيه. كان باولو يبدو ابن خمس سنوات، لكنه قد يكون أيضًا ابن ثمانٍ أو عشرٍ، وكان يقول له: «حاول أن تتذكَّر يوم ميلادك.»

وكان الصَّبي يرد قائلًا: «إنه اليوم الذي جئتنا فيه.»

«ليس الأمر كذلك أبدًا!»

«لا أتذكَّر شيئًا قبل ذلك اليوم.»

فماذا عسى أنخل أن يستنتج من هذا الكلام؟ أيستنتج أنه بات أبًا لهذا الطفل بمحض صُدف جرائمه؟ ولِمَ لا؟ هو نفسه وهو على أعتاب الخامسة والثلاثين من عمره لم يكن قد عمل صالحًا طول حياته إلى الآن، فأن يكون أبًا، هو لعمري أمر ذو بال.

وكان يأمره قائلًا: «نادني بأبي.»

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

«كلا.»

«أريد ذلك!»

فيرد باولو مشيرًا إلى الأَكَمة: «أبي موجود هناك في الأسفل!»

وكان أنخل يشيح بوجهه. إذ إن ذلك القبر الذي يتوسَّط الطريق المؤدية إلى المزرعة يُزعجه، وحضوره الأخرس لا ينفك يُذكِّره بأنه قد ارتكب أخطاء. وكان شاهدًا على بطشه وحُمقه وعجزه. كان باولو يضع على القبر بعض الأزهار البرية أحيانًا، وكانت عيناه لا تدمعان لكنهما تَسْبران أغوار الأرض كمثقابٍ مُنقبٍ عن النفط؛ فقد كانت كل الأسئلة التي لم يطرحها الصَّبي وكل الأجوبة أيضًا مدفونةً هناك.

كان أنخل يحس شيئًا من الغَيْرة كلما رآه قد وقف على كومة التراب، قال: «يمكننا تسويتها بالأرض.»

«لماذا؟»

«لفسح الطريق.»

«الطريق واسع بما يكفي.»

ألقى أنخل نظرة على المكان من حوله. كان امتدادًا من الأرض شاسعًا مُقفرًا لا ينبع معه اعتبار هذه الأَكَمة من التراب عائقًا إلا من إحساس بالذنب، فلم يجرؤ بعد ذلك على التطرُّق مُجددًا إلى الموضوع، وكان الاتفاق أن يظل القبر مكانه، فاقترح عليه: «لكن يمكننا الرحيل؟»

قال باولو: «ارحل أنت إذا شئت، أما أنا فأسكن هنا.»

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

«أنا أيضًا أسكن هنا. ولا يُمكنني الرحيل في كل الأحوال، إذ ستعتقلني الشُّرطة أينما حللت.»

انقضت سنة بأكملها دون أن يطرق منزل آل بولوفاردو أحدٌ، فكأن كل الجيولوجيين والمغامرين ومستكشفي النجوم قد اتفقوا على تجنُّب المكان الذي سيلاقون فيه مثل ذلك الحارس الشَّرس، وبذلك ضمَّت الوحدة من جديد ذراعيها على المنزل الضائع تُهدهده بصوتها الأجوف لينام. فكان أنخل يصعد إلى سطح الصفيح يُصلحه إذا أبلته الأمطار، وإذا ما غطت الثلوج المزرعة ضم إليه باولو ليلًا ليحس بشيء من الدفء، وإذا ما زمجرت الرِّياح تحت الباب والنوافذ دق أنخل الأخشاب وسد المنافذ ليصدَّها.

فقد تساءل عن سبب ما كان يحسه من رغبة في السرقة والقتل والتحيل من قبل، وقد بدا له من الهيِّن أن يحيا دون أن يؤذي بشرًا ويكتفي بصراعه مع الفصول وقسوة العيش وليس له من أسباب السعادة إلا رفقة هذا الصَّبي.

قال لباولو: «في المدينة يعيش الناس بعضهم فوق بعض وذلك ما يجعلهم سريعي الغضب.»

فقال الصَّبي مُتسائلًا: «ألهذا أصبحت سفَّاحًا؟»

«لا أعرف.»

«لماذا لم تقتلني؟»

«الحق أنك لم تُثر غضبي.»

وعقب سنة بتمامها، وحينما ألقى الصيف من جديد رداءه

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الأبيض على سطح الصفيح، وبدأت الثَّعابين تطلب ظل الصُّخور مخبأً، حل بالمكان مُسافرٌ على مرمى من المنزل. كان أنخل عائدًا من البئر محمَّلًا ببراميل من البلاستيك كلَّت منها ذراعاه. أومأ له الرجل فألقى هو نظره على المزرعة التي كان الصَّبي يُقلِّب أرضها مُنتظرًا الماء. وأحس بحرقة في معدته وقد ألمَّت به الريبة من جديد. هذه الريبة اللعينة المؤلمة. كان الرجل يبدو من بعيد شابًّا فتيًّا. ومن الطبيعي أن من يصل إلى هنا راجلًا لا بد أن يكون في صحة جيدة. مَن يكون يا ترى؟

قال الغريب: «مرحبًا! أبحث عن ضيعة آل بولوفاردو، هل هي هنا؟»

كان أنخل يتقدَّم على الطريق والبراميل تصطك بفخذيه، وقد اقشعرَّت ذراعاه لهبوب هذا الخطر. وهناك توقَّف باولو عن تقليب الأرض، فقد أحس هو أيضًا حضور الرجل.

«هل أنت السيد بولوفاردو؟»

سأل أنخل وهو يضع البراميل أرضًا أمام قدمي الغريب: «ماذا تريد؟»

كان يبدو جليًّا أن حذاءه جديدٌ رغم ما لطخه من وحل وغبار، وأما أناقة ملبسه فكانت تشي بأنه مُوسرٌ. كان ممشوق القامة، مُتناسقًا وواضحًا، مَرِحًا ومُعتدًّا بنفسه. كان يتمتع بكل ما يجعله مقبولًا لدى كل الناس ما عدا أنخل.

قال وهو يمد يده: «اسمي «لويس ساكوندا».»

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

لم يرغب في مصافحته، وعقد ذراعيه، فهو يُفضِّل تجنُّب كل اتصال ممكن إذا كان مُضطرًّا إلى قتل هذا الرجل. في الأثناء انضم إليهما باولو، فابتسم له الغريب ابتسامة عريضة: «أعتقد أنني أُزعجكم...»

قال أنخل: «هو كذلك.»

قال باولو: «حسنًا. أترغب في شُرب شيءٍ ما؟»

قال الصَّبي ذلك بعفوية، ودون إعمال عقله، وفتح باب المنزل على مصراعيه، وقال: «ادخل.»

فتمتم أنخل حانقًا: «أسرع، فالحرارة مُؤذية.»

دخلوا إلى المنزل بضوئه الخافت حيث فرَّت دَجاجة وهي تصيح تحت وقع ركلة أنخل لها.

علَّق الغريب: «أنتما بأفضل حال هنا. أنتما مُحقَّان في العيش بعيدًا عن كل شيءٍ؛ فالمدينة...»

وكما تعوَّد، أخرج الصغير جرَّة أمه المقشرة ليسقي ضيفه كأس حليب ماعز.

«... المدينة هي الجحيم!»

أتم الغريب كلامه. شرب حليب الماعز في جرعة واحدة. وكان أنخل يجلس قُبالَته على المقعد الخشبي يسترق النظر إليه، فقد كان الأمر هينًا، فالسِّكين هناك في متناول يده داخل الدُّرج. وتحت مرفقي الغريب لا تزال أثلام سطح الطاولة تحتفظ بآثار دم والدي باولو، وخَطَّ الحليب أعلى شفة الغريب شاربًا أبيض. اغتاظ أنخل

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

من باولو، وقال في نفسه: «كأس من الحليب! وهو أشد العارفين بقيمة الأشياء هنا!»

قال الغريب مُفسِّرًا: «أنا أبحث عن مكان فريد... كيف أقول؟ مكان كهذا المكان.»

قال باولو مُندهشًا: «أتقصد كهذا المنزل؟»

«كهذا المنزل، كهذه الطريق، وهذه الصُّخور...»

وقف الغريب ليقترب من النافذة: «كهذه السماء، وجرذان الحقول تلك هناك. مكان كمِثل هذا المكان تمامًا.» والتفت إلى الرجل والصَّبي ثم ابتسم.

تمتم أنخل: «مممم... مثل هذا المكان. لكن ليس هذا المكان!»

عاد الغريب ليجلس قُبالَته، وكان أنخل كلما أمعن النظر إليه قاده ذلك إلى الأمر المحتوم: سيقتله؛ فبظهوره هنا أسرج الدخيل قدره، ونقض الهدنة، وعادت معه تلك الدورة الجهنمية، أحسها أنخل في قُشَعرِيرة أطراف أصابعه.

أردف لويس ساكوندا بصوتٍ مُحرجٍ: «أعلم أنني في منزلكم. لكن...»

قاطعه باولو: «أترغب في المزيد من الحليب؟»

سقاه كأسًا ثانية بينما كان الغيظ يخنق أنخل القابض على كفيه تحت الطاولة، فالدُّرج لم يكن بالبعيد عن مُجرَّد حركة.

تابع الغريب كلامه قائلًا: «أنا مُستعدٌّ لتقديم المال إليكم، فهو ليس بالمُشكل عندي، فلديَّ منه أكثر مما يكفي، ثم إني

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

مُستعدٌّ للعمل، وإذا أردتم أستطيع أن أستأجر منكم قطعة أرضٍ أُقيم عليها كوخًا، فأنا لا أريد أن أزاحمكم مسكنكم. سأُقيم بعيدًا في آخر الطريق حتى لا تكادوا ترونني.»

كان باولو قد وضع الجرَّة فوق الطاولة وهو يرقب أنخل، إذ كان يشعر أن مأساة تُوشك أن تحدث إن لم يفعل هو شيئًا، فقد وجد هذا الغريب طَيِّبًا، فلم يُرد له الموت، ولم تكن له رغبة في مساعدة أنخل لحفر قبر جديد، فجفاف الأسابيع الأخيرة قد جعل الأرض أكثر قسوة وأصلب من حجر الغرانيت، وكان يكفيه عناءً عزق أرض المزرعة؛ لذلك وعندما رأى أنخل يفتح الدُّرج صاح قائلًا: «أوه أبي! سيكون ذلك حسنًا، أليس كذلك، أبي! قل نعم، أبي!»

تَسمَّر أنخل في مكانه. أبي... فالصَّبي قال لتوِّه: أبي.

قال الغريب: «ابنك فتى مهذب. يبدو أنه قد أحسنت تربيته.»

ظل أنخل مُسمَّرًا في مكانه ويده ممدودة إلى الدُّرج.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

٣

لمَّا بلغ الثلاثين، غادر ساكوندا «فالباريزو» ليجوب العالم، فلم يكن من المحمود في عائلته أن يستقر المرء حيث دفعت به رحم والدته، فقد تشتَّت آل ساكوندا، وهم من إسبانيا أصلًا، منذ أجيال مضت في القارات الخمس؛ فَرَسَت والدة لويس في «فالباريزو» كما يرسو قارب متهالك إثر سنوات من السفر على غير هدًى، حيث انتهى بها المطاف هناك إلى تربية أبنائها الأربعة الذين ولِدوا من أب واحد قبل أن تعاود السفر إلى إفريقيا.

أما والد لويس، تاجر الشراب الثَّري، فقد كان يغدق المال على أبنائه مُعتقدًا أن ذلك يكفي لإسعادهم، فكان يُرسل الشيكات كما يُرسل الآخرون البطاقات البريدية، وكلما عاد إلى «فالباريزو» أمعن في تفحُّصهم الأربعة كما يتفحَّص أعواد الكروم فيرى أنهم يكبرون، إذ إن مقياس طول الإنسان لا يشير إلى غير ذلك، ليعاود السفر مُطمئن البال.

وفي يومٍ ما غادرت أختا لويس الكبريان «تشيلي» وقد تزوَّجتا صغيرتين، إحداهما بألماني، والأخرى بفرنسي، أما أخوه الأصغر

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

فقد رحلت به أحلامه إلى «هوليود»، حيث كان يأمل أن يُصبح مُمثلًا.

في آخر زيارة للأب، كان لويس ما زال يعيش في «فالباريزو» بمنزل العائلة، فقال السيد ساكوندا مندهشًا: «أما زلت هنا أنت؟»

«يبدو أنني ممَّن يَتَجَذَّرون في المكان بلا شك.»

«تَجَذَّر أينما رغبت، ولكن ليس هنا. سأبيع المنزل!»

لم تعد سوق الشراب تُدر المال الوفير في السنوات الأخيرة، لذلك وجب خفض النفقات، وشد الأحزمة، والبيع، قال الأب للويس: «هذا نصيبك. وهذه المرَّة الأخيرة التي أُعطيك فيها المال، وستكون الأخيرة التي أعود فيها إلى «فالباريزو»، فلتتدبَّر أمر حياتك.»

وهكذا غادر لويس مسقط رأسه، وقطع جذوره، واختلق قصة التطواف بالعالم؛ فقد كان هذا الأمر طبيعيًّا لأي فرد من آل ساكوندا، لكنه كان الأبعد عن لويس.

قطع لويس على نفسه عهدًا، وهو يُودِّع أصدقاءه وأصحابه ورفاقه، بأن يكتب إليهم رسائل من المدن البعيدة والغريبة، تألَّقت له أعينهم: «لويس ساكوندا سيجوب العالم! إنه لرجل رائع!»

سأل باولو لويس وقد كان يومًا يقص عليه حكايته: «وبعد ذلك؟»

«بعد ذلك، لا شيء. ركبت القطار نحو الجنوب، بتُّ في الفنادق، مشيت في الطرقات...»

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

«ألم يرُق لك ذلك؟»

«نعم.»

«إذن، لم تغادر حتى تشيلي؟»

«وصلت إلى هنا.»

«وماذا عن الرسائل؟»

«كثير من الوعود لا يُوفَّ بها، أليس كذلك؟»

هزَّ باولو رأسه بشدة. لم يفهم إلا نصف ما كانت تعنيه هذه الجملة، فلم يَعده أحدٌ بشيء من قبل. كان ما فهمه أن لويس يهرب من أمر ما كما تهرب النعامة، وقد وقع على طرف الأرض الضائع هذا ليدفن فيه عاره؛ إذ ترك في «فالباريزو» ذكرى رجل مُتميز مُغامر لا يهاب المخاطر، قُدِّر له أن يختفي اليوم حتى لا يُحطِّم أحلام الآخرين!

«ما الذي يَشدُّك إليه، هذا الغريب؟» قال أنخل ذلك غاضبًا وقد رأى باولو عائدًا من الكوخ في آخر الطريق.

«لا شيء، أُعينه على بناء سطحه.»

«دعه يتدبَّر أمره بنفسه، ولتُعِنِّي بَدلًا منه على مداواة العنزة.»

تبع باولو أنخل إلى زريبة الماعز حيث كان هناك خمسة رؤوس اشتراها والد باولو صغارًا من السوق منذ زمن، وما زالت تُدر الحليب، لكن بلا سخاء، وقد أظهرت إحداها منذ أسابيع عديدة علامات وَهَنٍ.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

«أَتعلمُ، لا أعتقد أنها عليلة...» هكذا تمتم باولو وهو يجلس مُمتطيًا السِّياج.

كان أنخل قد وصل إلى العنزة فمدَّدها عنوة حتى انتزع منها ثُغاءً هزيلًا، وكان يلوح فوق رأسها بماسورة تطفح بخلطة من الفيتامينات: «بالتأكيد إنها مريضة! فهي تمرض وتتألم، وها قد انقلبت عيناها رماديةً.»

ترك باولو أنخل يُعالج العنزة، فالفيتامينات لن تضرَّها، ولكنها لن تصنع المعجزات أمام هَرَمِها. أحس باولو أن عاصفة دوَّامة قد اقتلعته وهو يرى سفَّاح البشر هذا يحاول جاهدًا إنقاذ حياة عنزة هَرِمة. كيف يُمكن لهذه الأشياء أن تحدث في هذا العالم؟! وكيف لنا أن نفهم هذا الكون ونحن لم نفهم حتى تصرُّفات مَن يعيشون معنا بجوارنا؟!

أعلن باولو فجأة: «سأخرج لصيد الثَّعابين!»

ركض مُبتعدًا عن المنزل تلاحقه احتجاجات أنخل، ركض مُبتعدًا عن الزريبة، مُبتعدًا عن الأَكَمة حيث يتحلل والداه، مُبتعدًا عن كوخ لويس المُتداعي. كان يجري كأرنب مذعور، وبدا له هذا الفضاء الواسع المُقفر المُمتد الذي عصفت به الرِّياح ولوحته أشعة الشمس أعمق من الغَيهَب وأحلك سوادًا؛ فقد كان يعلم منذ نعومة أظفاره أن البحر ومياه المحيط الهادئ الباردة وراء هذه الأرض المُمتدة المُقفرة حيث يعيش، وكانت تتراءى له خيالات البراكين البعيدة يكتنفها الضباب، وزرعت فيه حكايات المُسافرين

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أسماء مجهولة كالأزهار - مدينة، سوق، سفينة، مرصد، «تيموكو»، «فالباريزو»، قطار، أحصنة، عواصف...

توقف عن الركض، فشكَّلت الصُّخور من حوله غابة جامدة ميتة، ولم تكن لديه رغبة في صيد الثَّعابين، جلس على الأرض يتأمل السُّحب تتسارع من البحر كأنها الجيش لتكتسح الأرض وتغمرها ظلالًا.

وعند حلول الظلام بدأ أنخل يتوتر؛ فقد انتظر طويلًا، وانتظر... والآن، أصبح قَلِقًا، وكان ما يوتره هو الإحساس بالقلق بشأن الصَّبي، وكأن هذا الإحساس حكرٌ على الأمِّ الرَّؤوم، لا على القاتلين، الذين أصبحوا آباء بمحض صُدف الحياة. بدأ بالطواف حول المنزل وبيده مصباح العواصف، ثم ذهب إلى المزرعة ليعود إلى الأَكَمة التي رماها بنظرة ثاقبة عاتبة وتجاوزها ليتقدَّم على الطريق التي تراءى له في نهايتها قنديل الغريب المُتأرجِح في سقف كوخه، وكان ذلك موترًا بدوره في هذا الظلام.

ضمَّ أنخل قبضتيه، إذا وجد باولو عند الغريب فسيعود باحثًا عن سكِّينه... وهذه المرَّة بـ«أبي» أو دونها سيقتله؛ لسرقته حب الصغير. سيكون الأمر بسيطًا ولن يعود إليه مرَّة أخرى.

وصل قرب الكوخ حانقًا على لويس، طرق الباب طرقة خُلع لها المفصل، هبَّ الغريب واقفًا لرؤيته أنخل أمامه وكان بمفرده.

فاستفسره لويس: «هل من خدمة أُقدِّمها لك؟»

«هل باولو هنا؟»

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

«كلا.»

أشار أنخل إلى صفيحة الباب: «أنت تُنجز عملًا رديئًا؛ فهذا لن يصمد.»

«سأصلحه.»

تفحَّص لويس وجه أنخل المضطرب: «أستطيع أن أبحث عنه معك إذا أردت ذلك؛ فمن الأفضل أن نكون اثنين.»

هزَّ أنخل كتفيه، فالغريب يُثير حَنَقه بحديثه الحضري المؤدب وابتساماته الحمقاء في غير محلِّها، رغم ذلك هو مُحق، فالأجدى أن يكونا اثنين ليبحثا عن الصَّبي، وأضمر في نفسه أنه بعد أن يجداه سيتسلَّح بسكِّينه ليتخلص من لويس نهائيًّا.

كان هبوب الرِّيح المُتواصل يكنس الأرض ويذرو الغبار ليخز الجلد والأعين والحنجرة، وكانت الغيوم تكتسح طرف السماء المتلألئ بالنجوم ليتخلَّلها أحيانًا بدرٌ شاحبٌ. كان الرجلان يتقدَّمان معًا في الظلمة المتوحشة مُستنيرين بمصباحيهما تتسارع خفقات قلبيهما، وعيناهما كأعين الوعول، قلقة، متحركة، تطلق حنجرتاهما بصوت واحد: «باولووووو!»

وبعد رُبع ساعة من بحث غير مُجدٍ توقَّف لويس، وجَذَبَ أنخل من ذراعه قائلًا: «فلنفترق! سأتوجَّه غربًا ولتتابع أنت شرقًا.»

شدَّه أنخل بيد ثابتة. ما الأمر الذي يُدبِّره؟ كان يرى جليًّا في عيني الغريب الوضيعتين أنه يريد العثور على باولو بمفرده ليدَّعيَ الفضل عليه في ذلك، ويستدر تعاطف الصَّبي معه، وهو

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

لن يسمح بذلك مُطلقًا! فصاح: «أنت، واصل طريقك شرقًا! أما أنا فسأتجه غربًا.»

«كما تريد...»

ابتعد لويس تدفعه زخَّات الرِّياح، ساترًا مصباحه بيده الطليقة، وأسدل أنخل جفنيه؛ فقد أراد أن يكون أكثر ذكاء، وأشد خُبثًا، وأغزر ثقافة حتى لا يخدعه هذا الرجل؛ إذ كان يعتقد أن ذهنه المحدود يأسر الأفكار ويخنقها ويُقلِّصها، وأنه لن ينجح يومًا في توسيع جُمجمته لتستوعب الذكاء في راحة، وذاك ما جعل قسمات وجهه تألم كأن بها شَدًّا: «باولووووا!»

انتبه أنخل وتوجَّه غربًا تُلوِّحُ الرِّيح وجهه بسياطها. بذكاء أو بدونه سيجد الطفل ثم يقتل الغريب ليعود كل شيء بعد ذلك هادئًا مُضنيًا. أخذ يمشي حانقًا رافعًا المصباح، فبدا كأنه المنارة وسط الأمواج العاتية: «باولووووا!»

تعثَّر بحجر، ونزفت ساقه تحت سرواله، وقطع عليه الألم أنفاسه لحظات. كانت الرِّيح تعوي في أذنيه، والغبار يتسرَّب إلى عينيه ليُجفف دُموعها، استأنف طريقه حَذِرًا مُجتنبًا صُخور هذا المكان التي نبتت كأنها الأشجار. وبينما كان يتحسَّس الظلمة بيده حتى لا يتعثَّر مرَّة ثانية، أحسَّ فجأة بِيَدٍ أخرى تلامس راحته وصوت باولو المرتعش يقول: «أنخل، أهذا أنت؟»

«أنا هنا.»

«قد وجدتني؟»

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

«نعم.»

كانت يد باولو هزيلة مُرتعشة، ويبدو أنه نام هنا بعيدًا عن المنزل حيث باغته الظلام، عضَّ أنخل على حلقة المصباح بأسنانه ورفع الصَّبي دون عناء يُذكر. فتح سُترته وضَمَّ بها الصغير إلى جسده ليمنحه الدفء، ثم عاد أدراجه والمصباح يتأرجح بين فكيه. زال الوجع عنه، وأحس بارتياحٍ عظيمٍ واعتزازٍ بعثوره على الصَّبي حيًّا، وذلك ما تألَّقت له نفسه فرحًا حتى فكَّر في تأجيل قتل الغريب إلى يوم آخر كي لا يُفسد روعة صفاء هذه اللحظة التي كان يمشي فيها على هذه الأرض البائسة وقد عانقه جسد آخر، بقناعةِ مَن حقَّق أمرًا عظيمًا في هذا الكون.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

٤

نفقت العنزة الهَرِمة رغم الفيتامينات ومعاودة العلاج. كظم أنخل غيظه الشديد، ولم يُبدِ على ملامحه شيئًا، غير أنه قطَّع الجثة بعنف. كان يودُّ دفنها قرب الأَكَمة حيث يرقد والدا باولو، ولكنْ لنُدرة اللحم لم يخضع أنخل لهذه العواطف، فَطَهَا أفضل القِطع وكبَّبها، فكانت مُستساغة. تركها لباولو الذي أعطى منها بدوره قِطعًا للويس. كان الأمر هكذا، فمن هنا فصاعدًا وجب على أنخل أن يقبل تقاسم شطائر اللحم وحليب الماعز وحُبِّ الصَّبي مع الغريب.

وكان لويس يحرص من جانبه على ملء صهريج الماء باستمرار، ويجمع بعض البطاطس، إضافة إلى عنايته بنبتة عريضة الأوراق يستخرج منها تَبغًا رماديًّا يحمله أحيانًا إلى أنخل في علبة قُفلها فضِّيٌّ، فيُدخِّن الرجلان حينها في صمت على عتبة الباب، متأمِّلَيْن احتضار أشعة الشمس الأخيرة في الأفق، فقد حلَّ بينهما سِلْمٌ أو ما يُشبه السِّلم، وتخلَّى أنخل عن سكِّينه في الدُّرج إلى جانب البزَّال وكسار الجوز.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

اقتلعت عواصف الخريف الأولى سطح كوخ لويس، مما اضطره إلى طلب اللجوء إلى المنزل، فقال باولو وهو يفتح الباب على مصراعيه: «ادخل.»

فتمتم أنخل: «أسرع! فالرُّطوبة مؤذية!»

جلس لويس على مقعد أمام الطاولة التي ينتف فوقها أنخل ريش دَجاجة، فوضع عليها جِرابًا من الجلد يحوي أثمن ما أراد إنقاذه من المياه. قال أنخل: «أبعد هذا! ألا ترى أني أنثر الريش والدم في كل مكان؟»

وبالفعل كانت الدَّجاجة مقطوعة الرأس تنزف دمًا، وكان ريشها يتطاير في أرجاء الحجرة ليحُطَّ على بقع الدم ويصطبغ بحُمرته. وكان باولو مُنشغلًا قرب المدفأة يُكوِّم أعواد الحطب التي ما تفتأ أن تتهاوى. قد رافق أنخل في أواخر الصيف في رحلة استطلاع مُضنية إلى تخوم هذا الامتداد المُقفر حيث تبتدئُ الغابة التي جلبا منها أغصانًا خضراء ينبعث منها الآن الدخان في المدفأة.

جلس لويس قُرب النار وجِرابه على ركبتيه مُتأملًا ألسنة اللهب في هيئة شاعر حزين، وكان أنخل يرقبه بطرف عينه خشية أن ينطلق الغريب في سرد إحدى رواياته التي ينبهر بها باولو كثيرًا.

سأل الصَّبي: «ما الذي يوجد في جِرابك؟»

شدَّ أنخل قبضةً من الرِّيش بيد القاتل الكبيرة واقتلعها في نتفة واحدة. رد لويس في حسرة: «أوراق، كتاب...»

قال باولو مُندهشًا: «كتاب!»

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

كَزَّ أنخل على أسنانه بشدة حتى سُمع لها صريرٌ، فقد حدث أن رأى باولو كُتبًا مرَّة أو مرَّتين في أثناء زيارات الشعراء أو العلماء، حتى إن أحدهم حاول أن يُعلِّمه القراءة لكن باولو لم يعد يذكر ذلك الدَّرس.

سأل لويس: «هل تُريد أن تراه؟»

فتدخَّل أنخل: «ليس لديه الوقت لذلك!»

وتقدَّم نحو المدفأة يمسك بالدَّجاجة منتوفة الريش كما يمسك بهراوة: «خذ! الدَّجاجة جاهزةٌ للطَّهو.»

تلقَّفها باولو وابتسم، وقال مُعلقًا: «أستطيع طهو الدَّجاجة وسماع الكتاب في الوقت نفسه.»

أُفحم أنخل؛ فالصَّبي أصبح يُفكر كما الحَضَر، وهذا نتيجة تردده على الغريب! هذا الرجل كان مُؤذيًا منذ وصوله، أما الآن فقد فات الأوان وتعلَّق به باولو، وعَلِم أنخل أنه إذا قتله الآن فسيفقد ثقة الصَّبي، وكما هو اللحم كانت هذه الثقة ثمينة، فَمَنْ غيره قد منحه ثقته طيلة السنوات الخمس والثلاثين السابقة؟ لا أحد، فلم يحسَّ قَطُّ جسدًا حيًّا مُتعلقًا به كما أحس في تلك الليلة المشهودة التي أنقذه فيها من الظلمات ولسعات البرد.

فتح لويس جِرابه، وأخرج منه الكتاب. كان مُؤلَّفًا قديمًا اصفرَّت أوراقه، أخذه من والده كما ادَّعى، حيث أعطاه إياه تاجر الخمور مع صُرَّة من القطع الذهبية، وكان ذلك منذ زمن بعيد. أدهشت هذه الهدية الغريبة لويس، خصوصًا أنها تعلَّقت بمجموعة شِعرية.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

سأل باولو: «هل يُحب والدك القصائد؟»

«لا. ولكن الشعراء يُحبُّون الخمر، إذ دفع أحدهم هذا الكتاب ثمنًا لقارورة منه. أما أبي فلم يتصفَّحه.»

وبينما بدأت الدَّجاجة تُشوَى على السَّفُّود ورائحتها تملأ المنزل أخذ لويس في القراءة. وقف أنخل أمام النافذة، يداه مدفونتان في جيبيه يستمع في الوقت نفسه إلى طقطقة الكلمات والنار وشحم الحيوان المُتقاطر على الحطب. وكانت القصيدة تتحدَّث عن بحَّار من الأزمنة الغابرة رمى به اللُّجُّ إلى اليابسة يترنَّح لِهوْل عدد من ماتوا وسط العاصفة، وقصيدة أخرى تتحدَّث عن شؤون الطبيعة والقلب ببساطة وشجاعة. أرخى أنخل لنفسه العنان لتُهدهدها كلماتُ القصائد التي فوجئ بأنه فهمها بيُسرٍ وهو يشاهد قطرات المطر ترتطم بالزجاج.

شقَّت هذه الكلمات لِنفسها طريقًا إلى ذهنه الضَّيق، كانت كماء مُتدفِّق يسقي جسده، دافعًا الحصى شيئًا فشيئًا، وكُتل التربة، كما يفعل هو حينما يسقي المزرعة. كان الأمر غريبًا ومُطَمْئنًا، ومنذ ذلك اليوم عاش الصَّبي والرجلان معًا في المنزل، وكلَّ مساء يفتح لويس الكتاب ويقرأ بصوتٍ جَهْوَريٍّ يكتنفه بخار الحَساء، وكُلَّ مساء يقف أنخل أمام النافذة حتى لا يرى الآخران الدُّموعَ، الدُّموعَ التي تملأ عيني القاتل!

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

٥

احتوى جراب لويس أيضًا ورقًا وأقلامًا. فالأوراق البيضاء المرتَّبة بعناية في ملفٍّ من الورق المقوَّى وأقلام الحبر والأقلام الجافة مُتنوعة الألوان، كلُّ هذه الأدوات البسيطة التي تُعبِّر عن المُجرَّدات تنتظر أن يجوب لويس أرجاء العالم حتى يستخدمها. سأل باولو وهو يمسح على الأوراق بظاهر يده قائلًا: «لماذا لا تحاول؟»

«أن أجوب العالم؟ هذا ما لا أقدر عليه، فأنا كالكروم التي لا تحيا إلا في تربة واحدة على مُنحدرات هذه التَّلة أو تلك، وتحت زاوية بعينها من الشمس، يُقضى عليَّ إذا ما انتُقلتُ.»

رأى باولو أن لويس قد بالغ قليلًا؛ فقد تنقَّل بعدُ من «فالباريزو» إلى هنا، ولم يقضِ عليه ذلك، فبالنِّسبة إلى باولو الذي لم يركب قطُّ قطارًا، ولم يركب سفينة، كانت «فالباريزو» أبعد من مدريد، أو جُزر المركيز، إذ لم يرَ فرقًا بينها. فأراد لويس إقناعه قائلًا: «في البلدان النائية يتكلَّم الناس لُغات لا أفهمها، ويأكلون خضرًا بمذاقات وأشكال غريبة، أما ماء شُربهم فيجعلني عليلًا، وأما مناخهم فقد يرشح له جسدي عَرَقًا أو يتصدَّع له رأسي وجعًا. مخاطر السَّفر عديدة، ومفاجآته غير سارَّة!»

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

قال باولو مُعترضًا: «هنا أيضًا مفاجآت لا تسرُّ، فقد اقتُلع سقف كوخك، ثم نفقت العنزة!»

فردَّ لويس: «أما السَّقف فكان هشًّا، وأما العنزة فأصابها الهَرَم.»

كاد باولو أن يستذكر أبويه اللَّذين أُزهقت روحاهما كذلك، لكنه أحجم؛ فما يُجدي الحديث عنهما الآن؟ فهو يكاد لا يذكر صوتيهما ورائحتيهما، ثم إن أنخل لا يحبُّ نبش الماضي، ولا يعنيه إلا الحاضر.

كان الطَّقس مُمطرًا، فخرج أنخل مؤتزرًا معطف بونشو، عازلًا للماء، كان مِلك والد باولو، وأخبرهما أنه سيذهب «ليستنشق الهواء».

كان لويس يرقب زخَّات المطر تنهال على البلَّور، ويتساءل كيف يصمد أنخل كلَّ هذا الزمن تحت هذا الطُّوفان؟ وما لم يستطع فهمه أن ذلك كان أهون على أنخل من رؤيته يُلقِّن الطفل درسًا في الكتابة؛ فطوفان المعرفة هذا يحني ظهره أكثر مما تفعل شلَّالات الماء المُتدفِّقة من السماء؛ فمنذ أن لمح الأوراق والأقلام هبَّ يبحث عن البونشو.

قال باولو مُقترحًا: «هلَّا كتبت رغم ذلك؟»

رأى لويس عيني الصَّبي الداكنتين تلمعان، عينين كستنائيَّتين مُتألقتين كقسطلتين نضرتين. لم يرَ باولو قَطُّ أحدًا يكتب، فلم يكن لأبويه الأُمِّيين أن يستطيعا مسك قلم، ولم يكن أنخل أفضل حالًا منهما.

فردَّ لويس قائلًا: «لنكتبْ معًا، كلٌّ منا يكتب كلمة.»

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

كانت الكلمات كالثَّعابين تتسلَّل بين أصابع باولو لتهرب وتستفزه؛ فيعتقد أنه لحق بها، لكنَّ انحناءاتها الملساء التي تتطلَّب مهارة فائقة غطَّت ورقة باولو برموز غريبة، وشطْب، وبُقع.

في النهاية أعلن قائلًا: «إنه لأمر عسير.»

فتمتم لويس قائلًا: «صحيح، فهذا يتطلَّب جَهدًا كبيرًا في البداية.»

قال في نفسه إنه ما دام بقي باولو جاهلًا بالكتابة فلن يبعث هو برسائل، ولن يعلم أصدقاؤه بشيء من جُبنه، وسيحميه جهل الصَّبي زمنًا آخر، لكن ستأتي لحظة لن يستطيع معها أن يتوارى أكثر. جمع أقلامه، فقال له باولو قَلِقًا: «ألم تعد راغبًا في تعليمي؟»

«بلى، ولكن لا داعي للعجلة.»

ظلَّت رغبة باولو مُترددة، فهو يرى أن قدرته ستكون أكبر إذا ما تمكَّن من الكلمات الثَّعابين، لكنه سيفقد مقابل ذلك شيئًا ثمينًا بلا شك، كما كان الأمر حينما ربح صداقة أنخل، وحمايته، مقابل فقدانه لأبويه، فعلم أن لكلِّ شيء ثمنًا.

وضع لويس الأوراق في جرابه، وفي اللحظة نفسها دفع أنخل باب المنزل، ودلف إلى الداخل بمعطف البونشو الذي يقطر ماءً، والبخار يتصاعد منه تصاعده من فوَّهات البراكين البعيدة التي تتراءى في الغرب. أخرج من بين طيَّات البونشو كُرة من الوبر المبلَّل دون أن ينبس بكلمة، وعرَّضها لحرارة ألسنة النار المترنِّحة. كان هِجْرِسًا ضالًّا وجده، وقد شُجَّ رأسه وجُرحت ساقه، لكنه لا يزال حيًّا. وكان أنخل قد ابتعد عن المنزل باتِّجاه أشجار الغابة، حيث سمع صوت أنين رغم صفير الرِّياح وقرع الأمطار على معطفه.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

اقترب من باولو الذي اتَّسعت عيناه إعجابًا وقال له: «إنه لك، فافعل به ما تريد.»

أخذ باولو الهِجْرِس بين ذراعيه، فقد كسا رأس الحيوان زغب رقيق، وكان خفيفًا خِفةً أحس معها باولو فجأة أنه بقوة العمالقة؛ فقد منحه ضمُّ هذا الهِجْرِس الجريح إلى صدره إحساسًا بقدرة تفوق تلك التي كان سيستشعرها لو استطاع كتابة كلِّ كلمات العالم. شكر أنخل بنظرة، وجلس القُرْفُصاء أمام النار لتدفئة الحيوان.

نزع أنخل معطف البونشو وعلَّقه إلى الحائط، وسرعان ما كوَّن ماء المطر بركة على البلاط.

سأل لويس: «هل من الحذر الاحتفاظ بهذا الحيوان؟»

رمَقَه أنخل بنظرة مُتحدِّية، فالحضريُّ يستطيع أن يُبهر الصَّبي بكتبه وأقلامه، لكنه لن يُفلح البتَّة في مقاومة الطبيعة بحيويتها وجمالها ووحشيتها. فاعترض لويس: «بإمكانه أن يعضَّ...»

فطمأنه باولو قائلًا: «كلا، كلا، أستطيع ترويضه.»

ابتسم أنخل، وجلس على المقعد وقد وضع العلبة ذات القفل الفضِّي على رُكبتيه فقد بقي له من التَّبغ ما يصنع به سيجارتين فلفَّهما بتأنٍّ ومدَّ إحداهما إلى لويس.

كان باولو مُنكمشًا على نفسه أمام المدفأة والهِجْرِس في تجويف بطنه، وقبل أن ينام همهم قائلًا: «يحتاج إلى الحليب، أليس كذلك يا أنخل؟ فهو ما زال رضيعًا.»

في هذا المساء لم يقرأ لويس؛ ففي هذا المساء انتصر أنخل.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

٦

انقضى الخريف وبعده الشِّتاء، واستبد موكب الأعمال اليومية بالأذهان: من توفير للقوت والتدفئة وإصلاح ما أفسدته تقلُّبات الطَّقس، وعلاج الماعز، وجمع بيض الدَّجاج برفق... والنَّوم على هدهدة هزيم العواصف. كان لويس يتخبَّط بين رغبته في مساعدة باولو أن يكبر، وجُبنه الذي يدفعه بلا هوادة إلى تأجيل هذا الالتزام، لذلك فقد قلَّت دروس الكتابة حتى ندرت خلال هذه الأشهر العسيرة، وغشيت ديوان الشِّعر صفحة رقيقة من الغبار إضافة إلى أنه قد يشتدُّ البرد في عديد الأُمسيات حتى لا تقدر أصابع لويس التي أدماها الصَّقيع أن تقلب الأوراق.

تعافى الهِجْرِس واسترجع قواه بفضل عناية باولو به، وحليب الماعز، وبما أن أعمار الحيوان تتميَّز عن أعمار البشر باختصارها وتكثُّفها فقد بلغ أشدَّه حتى قبل أن تثبت يد باولو عند كتابة أحرف اسمه. ومع تباشير شمس الرَّبيع وحينما تجاوزت الحرارة فجأة درجة الصِّفر أبدى الهِجْرِس شهية للأكل تجلَّت معها حاجته إلى اللحم.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

شرع باولو في الصيد، وقد عقد عزمه على تلبية حاجات رفيقه بنفسه، فتسلَّح بمعول جليدٍ وجده بالمخزن، وكان ينطلق كلَّ صباح بحثًا عن فئران الأحراج والخِلدان أو أيِّ شيء يستسيغه ثعلبه.

على هذه الأرض البور المُقفرة لم يكن ثمَّة شيء إلا الثَّعابين، فكان على باولو أن يُغامر بأن يبتعد أكثر عن المنزل باتِّجاه الأشجار، غير أنه لم يلج الغابة قَطُّ، فهذا العالم المُظلم العمودي يُثير فيه الخوف، فكان يكتفي بنبش أطرافها، فإذا ما رصد دويبة مُغرية أسرع إلى الإطباق عليها قبل أن يخطر لها الاحتماء بالأحراج، فقد كانت خَشيته من النباتات التي تُكبِّله تُثير حفيظته، فلو لم يكن خائفًا لرجع بكثير من اللحم بدل عودته عديد المرَّات خالي الوفاض خجلًا من خوفه الشديد.

كان الثَّعلب في المنزل يعوي ويكشِّر عن أنيابه ويُزمجر، فدقَّ له باولو وتدًا ولفَّ حول الحيوان حبلًا يُعرقله حتى يكاد أن يختنق. كان لويس يتجنَّب المرور به. أمَّا أنخل فقد كان يُراقبه مُعجبًا بأنيابه الحادَّة، مُنتظرًا اللحظة التي ستغلب فيها على الحيوان طبيعتُه البرِّية. كان ينتظر هذه اللحظة بمُتعة، مُعتقدًا أنه سيهاجم لويس، ولن يهاجمه هو، فقد كان ضخمًا قويًّا، ولن يهاجم باولو سيِّدَه وصديقَه، فما عاد أنخل راغبًا في التَّخلُّص من لويس كما كان سابقًا، لكن ظلَّت به رغبة مُلحَّة في إذلاله، وفي إقناعه أنه هو سيِّد المكان، فسأله مُستهزئًا: «أأنت خائف من الثَّعلب؟»

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

قال لويس مُعترفًا: «نعم.»

«إنه خوفك الذي يُهيِّجه.»

«كلا، إنه الجوع. لو أطعمناه إحدى دَجاجاتنا؟»

«دَجاجاتِـ.. ـنا؟»

«حسنًا... إحدى دَجاجاتك.»

«لا سبيل إلى ذلك.»

لذلك، ومع تحسُّن الطَّقس قليلًا أصبح لويس يخرج في جولات طويلة مُبتعدًا عن الثَّعلب، وعن أنخل المعتوه الشَّرس الذي لا يرتقي حتى إلى مستوى الحيوان. كان يمشي لساعات حتى يُدمِيَ قدميه. بلغ يومًا خليجًا بحريًّا يشقُّ الأرض البور عنوة بعيدًا إلى أقصى الغرب. تسمَّر لويس واقفًا وقد أدهشه هذا الاكتشاف، أمام هذه المياه الباردة التي طفت على سطحها كُتل جليدية، وفَتَنه تفجُّر المياه وسط هذا العالم المُتحجِّر الذي يحاصرها. كانت السماء مُنقشعة، فرأى عن بُعد قِمم البراكين وقد علتها الثُّلوج. وكانت وحدته وقلقه، وقد اكتسحهما هذا القدر من الجَمال، قد هيَّجا قريحته الأدبية فتدافعت إلى رأسه جُملٌ وكلماتٌ رائعةٌ تفجَّرت فيها كأنها ألعاب نارية، فندم على عدم حمله لجرابه معه.

في ذلك اليوم، وحينما عاد إلى المنزل مُنهكًا خائر القُوى، وجد مشهدًا أكثر غرابة؛ فقد قُلبت الطاولة، وكذلك المقعد، وتناثر رماد المدفأة في أرجاء الحجرة، وكان أنخل وباولو يقفان في مواجهة الثَّعلب في صمت رهيب.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

لاذ الحيوان بالممرِّ المؤدِّي إلى الحُجيرة مُزمجرًا مُكشِّرًا عن أنيابه، وقد قطع حبله وأرخى أذنيه وبرقت عيناه وبدا مُتوثِّبًا. قال له أنخل آمرًا: «إيَّاك أن تتحرك!»

فتسمَّر لويس في عتبة الباب، وكان باولو بجانب أنخل يبكي في صمت مُرتعش الجسم مُمسكًا بيديه بمعول الجليد مُصوِّبًا إياه على استحياء نحو الثَّعلب. تقدَّم أنخل خطوة نحو الطاولة، فتقهقر الثَّعلب قليلًا. زاد أنخل خطوة أخرى فزمجر الثَّعلب بشراسة. قال أنخل لباولو: «انضمَّ إليَّ، بهدوء، هكذا...»

شخر باولو، وعلت شفتيه علاماتُ الخوف والحزن، وحينما تناكب مع أنخل حاول أن يُكلِّم الحيوان: «اِهدأْ، لا أحد يريد لك الأذى... أنا صديقك، أليس كذلك؟ أنا وأنت نعرف ذلك جيدًا... أعدك بأنه من الغد سيكون لك ما تأكله. سآتيك بظبية كاملة!»

زمجر الثَّعلب بِحدَّة مُكشِّرًا عن أنيابه.

تمتم لويس قائلًا: «ألا يمكن أن يكون هذا الحيوان مُصابًا بداء الكلب؟»

تُرك الباب مفتوحًا فتدافعت هبَّات الرِّيح إلى قلب المنزل لتذروَ الرَّماد على أرضه، ويتأرجح لها المصباح المتدلِّي من السَّقف. تقدَّم أنخل خطوة أخرى، لم يعد يفصله عن الطاولة المقلوبة غير بضعة سنتيمترات، فمدَّ يده برفق إلى الدُّرج، حيث كانت السِّكين هناك في متناول يده، سحب الدُّرج ببطء شديد دون أن يرفع عينيه عن الحيوان... فجأة تمدَّد جسم الثَّعلب كأن آلة خفية قوية

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

قد دفعت به. كانت قفزته دقيقة وسريعة، لم يستطع معها أنخل إلا إخفاء وجهه بذراعه بشقِّ الأنفس، انقضَّ عليه الثَّعلب بفكٍّ مفتوح، فاستغاث أنخل، وصاح باولو، وكان صياحه كرجع الصَّدى: «لاااا!»

تسمَّر لويس في مكانه، وأحسَّ البرد ينهش ظهره، وخُيِّلَ إليه أنه جبل ثلجيٌّ، إحدى قطع الجليد الجامدة تلك التي رآها منذ قليل، دون ذراعين وساقين ينجد بها الرَّجل الذي يستغيث ألمًا. صاح أنخل: «باولو! أُقتلْه! أُقتلْه!»

التفت لويس إلى الصَّبي الذي كان ينظر إلى يديه وإلى سنان معول الجليد، ثم إلى الثَّعلب، ثم إلى أنخل، وعاود النَّظر إلى يديه، فإلى السِّنان... فإلى أنخل، الذي لم يستطع الفكاك من الثَّعلب، رغم حجمه وقوَّته، كانا يتمرَّغان معًا على الأرض وسط الرَّماد كقشَّتين تلاعبت بهما الرِّيح. وكان الثَّعلب قد غرز أنيابه في كتف الرَّجل.

«أُقتلْه! أُقتلْه!»

انتفض باولو ونظر للمرَّة الأخيرة إلى سنان معول الجليد، وللمرَّة الأخيرة إلى الثَّعلب، ثم اندفع إلى الأمام، فأغمض لويس عينيه ولم يسمع إلا صيحاتٍ وعواءً وبكاءً وأنفاسًا لاهثة، وحينما تجرَّأ على النظر رأى الرَّجل والصَّبي والثَّعلب قد تكدَّس ثلاثتهم مُلطَّخين بالدم والعرق والدُّموع.

نهض أنخل أولًا وقد غطَّى الدَّم كتفه وخدَّه وأذنه اليسرى، ثم انحنى وجذب الصَّبي إلى الخلف، فرأى على وجهه علامات

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

التأثُّر إذ لا يزال باولو قابضًا بيديه على معول الجليد بإصرار، وقد غاب سنانه في جنب الثَّعلب وغُرِس شطره في اللحم والوبر.

تمتم أنخل: «باولو...»

«لقد قتلتُه.»

«نعم.»

«أهذا ما أردتَه؟»

«نعم.»

تركت يدا الصَّبي معول الجليد، وتهالك جسمه. رأى لويس تَفطُّرَ قلب الفتى قد ارتسم على وجهه، وكأن مرآة داخلية قد عكسته، وعلم أن باولو قد فارق طفولته في هذه اللحظة بعينها، وفكَّر أيضًا أن هذا الصوت العنيف سيكون له دويٌّ أعنف على حياته وحياة أنخل.

في آخر طريق الحصى، ووسط هذا المنزل الذي تَلْفَحُه ريح الجنوب هناك الآن ثلاثة رجال ضائعين وثعلب يجب أن يُدْفنَ.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

٧

حلَّ يناير من جديد، وتفتَّحت نباتات تَبغ لويس، وتشقَّقت أرض المزرعة تشقُّق طلاء قديم، واختلطت حبَّات البطاطس بالحصى، وبدت على عنزتين علامات الهَرَم، وخبَا تألقُ عيني باولو، ولم يعودا كقسطلتين نضرتين، والتأمت جراح كتف أنخل، وبرزت كومة تراب صغيرة إلى جانب الأَكَمة.

كان أنخل ولويس يمضيان لحظات طويلة يُدخِّنان على عتبة الباب تغشاهما أشعة شمس الغروب في ذلك الجو الثَّقيل، فكان لويس يحضُّ باولو على معاودة التَّعلُّم لينسيه حزنه. فهو قد تعلَّم بعد كتابة: «باولو، أنخل، لويس، تشيلي، ثعلب، سكِّين».

وسأله لويس وهو يفتح جرابه: «أتريد أن تتعلَّم كلمة جديدة؟»

«لا أعرف.»

«هناك كلمات لا تُحصى، ولكنَّ حروف كتابتها قليلة، ولن تشقَّ عليك معرفتها كلها.»

اقترب أنخل منهما وقد سلَّم بالأمر، فلم تعد الأوراق والأقلام تُخيفه، وكلُّ ما يرجوه أن يرى ابتسامة ترتسم على شفتي باولو،

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

كلَّفه ذلك ما كلَّفه، فقال له مُشجِّعًا إياه: «هيا باولو، أرني ما أنت فاعل.»

«أتهتمُّ فعلًا بالأمر؟»

«أجل.»

أخذ باولو القلم الأسود مُرتابًا. «أنخل، تشيلي، ثُعلب، سكِّين...» تساقط شعره المُتلبِّد على الورقة، وانزلقت خصلات منه لتئِزَّ تحت سنِّ القلم، فكان يهزُّ رأسه ليردَّها إلى الخلف. كان أنخل يمعن النَّظر إلى وجهه الذي تصلَّبت قسماته وجمدت، ولكنها لم تُفصح بعد عن أيِّ علامة بلوغ. كم يبلغ من العُمر هذا الفتى يا ترى؟ ندم أنخل على قتله الأمَّ «بولوفاردو»، دون أن يطرح عليها هذا السُّؤال.

«كم يبلغ باولو من العُمر برأيك يا لويس؟»

كان درس الكتابة قد انتهى، وخرج باولو تاركًا الرَّجلين وحدهما، قال لويس: «أقول... عشر سنوات، إحدى عشرة سنة، أهذا صحيح؟»

«لا أعرف.»

«أنت والده ولا تعرف شيئًا؟ كيف يمكن ذلك؟»

تذكَّر أنخل أنه قد ترك هذه الكذبة مُعلَّقة منذ اليوم الأول الذي ناداه فيه باولو بـ«أبي»، ليمنعه من اقتراف جريمة قتل جديدة، فاكتفى بالإجابة: «ليس الآباء أمَّهاتٍ.»

جرَّ لويس كرسيًّا إلى الخارج، وجلس تحت السماء يتذكَّر والده الذي كان تاجر شراب، يتذكَّر تواريخ محاصيل الكروم

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الوفيرة، لكنه ينسى دائمًا أعياد ميلاد أطفاله، ليفهم بذلك ما أراد أنخل قوله.

«أين هي أمُّه؟»

«لقد تُوفِّيت.»

نظر لويس إلى باولو وهو يعزق بعيدًا أرض المزرعة، ورمى بطرفه إلى الأَكَمة، وقال: «إنه لأمر مُحزنٍ.»

«هو كذلك.»

ومن الغريب أن أنخل قد استشعر الحزن بالفعل، هنا في هذا النُّور المُضجر الكئيب، وفي هذا الفضاء الخاوي الباعث على اليأس، ومع الزَّمن الذي مضى، والحياة التي تتمطَّى خرقاء طويلة، خصوصًا أن هذا الخَرْقَ والطُّولَ يرى فيهما حلول اللحظة التي سيفقد فيها حبَّ باولو. فدون حبِّ هذا الصَّبي سيرتدُّ إلى ما كان عليه؛ سفَّاحًا ولصًّا ومحتالًا وطُفيليًّا ليس لحياته معنى عند أحد من الناس.

رمى بالسِّيجارة أرضًا وداسها. أحسَّ فمه يحرقه، وشعر بالعطش، فدخل المنزل وقد شغلته هذه الأحاسيس التي هزَّت كيانه، وتناول الجرَّة، لكنها انفلتت من بين يديه، ورآها تسقط عند قدميه، وتنهال على البلاط الحجريِّ لتتفتَّت إلى ألف قطعة.

مدَّ لويس رأسه من فتحة الباب: «ماذا حدث؟»

ظلَّ أنخل واجمًا باهتًا، فهذه الجرَّة، وقِطع الفخَّار، وهذه الشَّظايا عند قدميه كانت وكأنها قلبه الذي تفطَّر، أحسَّ بحلقه

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ينعقد، فخرَّ على رُكبتيه، ولم يجد قوة لجمع القِطع، فقد كان كامل جسده يهتزُّ لنحيبه.

قرفص لويس إلى جانبه، ودون أن يفهم دواعيَ بكائه أشفق عليه أيَّما إشفاق. ماذا؟ هذا الرَّجل الفظُّ الغليظ، هذا الأُميُّ الكتوم يبكي! أَفي هذا الكون من الغرابة ما يسمح بحضور مثل هذه المشاهد؟ وضع يده على ذراع أنخل، ومع ذلك هناك الكثير مما يدفع إلى البكاء! هذه الجرَّة المهشَّمة، والبرد، والجوع، والضَّياع، والمنفى، وغرق السُّفن، والأمَّهات اللائي هجرن المكان في يوم ما يتبعن عُشَّاقهنَّ، والآباء الذين يغدقون الذَّهب معتقدين أنهم بذلك يسعدون أبناءهم، والليالي قُبالة البحر في «فالباريزو»، وغياب النساء، والأحلام المستحيلة، والقصائد الرائعة التي نُسِيت، والأطفال المغدورون، والثَّعالب النَّافقة، والخوف من العيش، كلُّ هذا وأشياء كثيرة أخرى تُمثِّل أسبابًا لا تُحصى تدفع إلى الإحساس بالحزن.

كان الرَّجلان هناك حين وجدهما باولو جاثيين على رُكبهما أرضًا. فقد عاد من المزرعة يلمع جبينه عرقًا، ومعزقه على الكتف، راغبًا في شرب قليل من الماء من الجرَّة. أغمض عينيه وفتحهما فلم يكن يُصدِّق ما يراه أمام عينيه. وحين همَّ بالتَّقدُّم التفت إليه لويس وأنخل، وقد احمرَّت أعينهما، وامتلأت وجناتهما دُموعًا، فرأى أنه لم يكن يحلم.

أضاف في المساء نفسه كلمة جديدة إلى قائمة الكلمات التي كان يعرف كتابتها: «جرَّة».

وبعد أيام قليلة نفقت العنزتان المريضتان، ولم تتبقَّ إلا اثنتان

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

في الزَّريبة، فقال لويس وهو يعدُّ: «عنزتان، ستُّ دَجاجات، بعض حبَّات البطاطس، وكثير من أوراق التَّبغ.»

فقال أنخل: «لن يكفيَنا ذلك مؤونة هذا الصيف.»

التفت باولو إلى لويس قائلًا: «أوَليس لديك مال؟»

«بلى، قلت لكما إنِّي أمتلك الكثير منه في حساب لديَّ ببنك في «فالباريزو»، لكن فيمَ سينفعنا ذلك؟ فليس ثمَّة شيء يمكن أن نشتريه هنا.»

قال باولو موافقًا: «هنا، لا...»

أطلق أنخل ولويس معًا وفي الوقت نفسه زفرة حسرة، فمن المعلوم أنهما لن يستسلما للموت جوعًا في هذا المنزل المُنعزل، ومن المعلوم أنه يجب إيجاد حلٍّ. لكن مع ذلك...

قال باولو: «لم أذهب قَطُّ إلى سوق.»

فردَّ لويس: «وأنا كذلك.»

فقد كان لا يتردَّد في «فالباريزو» إلا على الأحياء الرَّاقية والمطاعم والمسارح والمكتبات، وليس على الأسواق. سألهما أنخل: «هل هذا حقًّا ما تطلبانه؟»

كان قلبه يدقُّ بشدة في صدره، ففي الأيام الأخيرة فعل فيه هذا القلب الأفاعيل، فكان ينتفخ حدَّ الإفراط، ويقفز كالقرد في القفص، ويضطرب تأثُّرًا، أو ينقبض إلى حدٍّ أصغر من حجم الزبيبة. هذه الاختلاجات هنا في صدره تحيره، وتقلقه، فألحَّ عليهما قائلًا: «هل هذا حقًّا ما تطلبانه؟»

قال باولو: «يجب فعل ذلك...»

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

فأردف لويس قائلًا: «نعم.»

ارتعش أنخل، وكان لهذه الكلمات في أذنه وقع دقِّ نواقيس الموت في يوم أحد خريفيٍّ. إذ وقع كلُّ ما كان يخشاه، ولم يرَ كيف يمنع حدوث ذلك. فلو كانت له القدرة لقتل كلَّ الناس، بمن فيهم نفسه، ليوقف الزَّمن ويتجنَّب الآلام التي يراها مُقبلة! لكنَّ وجهه يصفرُّ لمُجرَّد التفكير في إخراج السِّكين، فهذه الأداة لم تعد صالحة إلا لتقشير البطاطس.

ومن الغد جمعوا ثيابهم القليلة، وشدَّ باولو المصراعين إلى النافذة، ثم أغلق الباب.

كان صباحًا بلا ريح، ولا مطر، ولا شمس، وكانت الغيوم بطبقتها الكثيفة الثابتة تسحق الأرض تحت كتلتها المُوحَّدة. دار باولو حول المزرعة، وصعد الطريق، ومسح بيده على تراب الأَكَمة مُتمتمًا بكلمات قليلة، ثم اتَّجه نحو الجنوب، فقد قرَّر لويس وأنخل مُتَّفقين أن يتَّخذا هذا الاتِّجاه طريقًا؛ فالشَّمال لا ينبِئهما بخير، والشَّمال هو «فالباريزو» والأصدقاء المنتظرون رسائل لا تصل، والشَّمال كان «تيموكو»، والشُّرطة، وماضٍ أليم من الأفضل تجنُّبه. أمَّا بالنسبة إلى باولو فأيُّ الاتِّجاهات الأربعة سيفي له بالغرض، فماضيه يتركه هنا في المركز وسط كلِّ شيء على أرض الحزن هذه.

قال: «هيا بنا.»

رغم ذلك أخذ لويس جرابه معه، وحمل أنخل سكِّينه معه، أمَّا باولو فأخذ حفنة تربة وضعها في جيبه.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

٨

كان أولُ مَن التقوه مُتسلِّقَ جبال بلجيكيًّا يبحث عن الجبال، فقال له لويس مُلاحظًا: «أنت في المكان المناسب.»

فقال البلجيكيُّ مُفسِّرًا: «قد استعددت لرحلتي هذه جيدًا.»

فقد اشترى حمارًا من «بويرتو ناتاليس»، حمَّله أكياسًا فيها - على حدِّ قوله - ما يجعله يُجابه قساوة الجبل لمُدة خمسة عشر يومًا على الأقلِّ بمفرده.

«أتريدون رؤية ذلك؟»

عرض عليهم مزهوًّا زاده مُقَسَّمًا، ووجباتِهِ المُجفَّفة في أكياس، وعلبه الحافظة، ثم أخذ يعرض عليهم أدوات تسلُّقه الجديدة الجميلة، وحبالًا ومسامير وأحذية وأغطية مُدفِّئة.

قال مُمازحًا وقد احمرَّت وجنتاه: «قضيتُ عشر سنوات وأنا أحلم بهذا، لذلك كان أمامي مُتَّسع من الوقت لأستعدَّ كما ترون!»

كفَّ عن الضَّحك وقد رأى أن سامعيه غير مُستعدِّين للحديث، خصوصًا منهم الرَّجل الضَّخم الذي يُثير فيه شيئًا من الخوف، لكن رغم ذلك فهو تشيليٌّ، وقد أشاد كلُّ الناس بترحاب التشيليِّين وبساطتهم وكرمهم.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

قال وهو يجمع أغراضه على عجل: «وكما ترون، أمامي طريق عليَّ أن أقطعها.»

فعل ذلك وهو يدير إلى أنخل ظهره.

* * *

وكان ثاني من التقوه فارسًا، فلَّاحًا من «لابامبا»، مزهوًّا بنفسه، مُتكبِّرًا، يسوق قطيع غنم سمينة إلى «بونتا أريناس»، فصاح باولو: «مرحبًا!»

أوقف الفلَّاح حصانه، وصفَّر لكلبه فتوقَّفت الأغنام بدورها لترعى الكلأ، ورمق الموكب الغريب بنظرة مُرتابة. فقال له أنخل مُفسِّرًا: «نحن نطلب «بونتا أريناس»، أهذه هي الطريق الصَّحيحة؟»

أومأ الفلَّاح برأسه موافقًا، فسأله باولو: «أما تزال بعيدة؟»

«بعيدة جدًّا.»

أخبره أنخل أن حمارهم يُعاني ألمًا ما، قائلًا: «إنه يعرج، هلَّا تفضَّلت وألقيت نظرة؟ إنها قائمته الخلفية اليُسرى...»

كان الفلَّاح خبيرًا بشؤون المطايا، فترجَّل عن حصانه، وسلَّم العنان لباولو، وانحنى ليُعاين ساق الحمار. فعل ذلك وهو يدير إلى أنخل ظهره.

* * *

قال لويس بعد صمت طويل: «ليس من المحمود فعل ذلك!»

كان أنخل قد أردفه معه على صهوة الحصان، وقد تلبَّدت

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

السماء حولهم غيومًا مُترعة. فهزَّ لويس رأسه قائلًا: «لا، قطعًا ليس ذلك...»

لم يستطع لويس إتمام جُملته، فقد شدَّ أنخل إليه فجأة عنان الحصان الذي تسمَّر في مكانه، فقال أنخل: «إذا أردت أن تصل مشيًا إلى «بونتا أريناس» فلن يمنعك أحد من ذلك، وما عليك إلا أن تترجَّل عن الحصان.»

لم يجد لويس ما يقوله، إذ لم يكن مُستاء بداخله من تجنُّب عناء سفر طويل على الأقدام، رغم أنه استهجن طريقة سلب أنخل للمسافرين التي تبقى على كلِّ حالٍ سرقة، فهمس في أذن أنخل قائلًا: «كيف سيرى باولو ذلك؟ فهذا ليس بقدوة حسنة لطفل في مثل سنِّه.»

هزَّ أنخل كتفيه، إذ للمرَّة الأولى لم يقتل أحدًا، وتصرَّف تصرُّف رجل مُتحضِّر، واكتفى بوضع حدِّ السِّكين على رقبتي الرَّجلين لإخافتهما، فأيُّ ضرر في ذلك؟ ثم إنه شدَّ وثاقيهما بعناية، بفضل أدوات تسلُّق البلجيكيِّ الجديدة، ولم يأسف إلا على كلب الفلَّاح الذي أبدى شراسةً أوجبت قتله، ولاحق باولو الخِراف التي فرَّت مذعورة لطلق الرَّصاصة دون أن يفلح في مسك أحدها. عاد لويس ليقول: «كان الأمر سينقلب إلى الأسوأ لو تمكَّن الفلَّاح من بُندقيَّته...»

«هو لم يتمكَّن من بُندقيَّته، فكُف عن التَّذمُّر فأنت تُوتِّرني!»

صمت لويس، فقد كانت البُندقية تتأرجح في نجادها مُحتكَّة

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

بجنب الحصان في متناول يد أنخل، أنَّى شاء امتشاقها، ثم أطلق زفرة مستسلمة. وبينما كان أنخل يقود الحصان في المسالك الوعرة كان لويس يُفكِّر في التهديدات التي أطلقها المُتسلِّق: «سأشتكي إلى السِّفارة! سأجدكم!» لكنَّ صيحاته الغاضبة ذهبت منذ زمن أدراج الرِّياح الجافة التي تهبُّ على السَّهل.

«ربَّما نندم على الإبقاء عليهما.»

أحسَّ لويس بقُشَعرِيرة تسري إلى أسفل ظهره، فأنخل لا يبدو مازحًا. أيكون من الرجال الذين لا يعيرون الحياة قيمة؟

لم يستطع لويس أن يُصدِّق أن رديفه في السَّفر مُجرمٌ، وقد رآه يبكي ويألم ويُعالج الماعز، ومع ذلك قرَّر أن يَحذَرَهُ. كان باولو يركب الحمار إلى جانبهما بظهر مستقيم وعينين مُصوَّبتين إلى الأمام، مُتشبِّهًا بفلَّاح «لابامبا» الذي أثَّرت فيه هيبته.

أسلم نفسه لتخترقها مشاهد الطبيعة والرِّيح، واستحضر راحة المُخيَّم في المساء، والأغطية الدافئة. والهواء المعطَّر للحَساء. لم يستثره شيء ممَّا فعل أنخل منذ قليل، فهو يجهل القوانين ومبادئ الأخلاق، ولم يُعلِّمه أحد التَّعفُّف عن السَّرقة أو عدم شدِّ وثاق البلجيكيِّين، ولأوَّل مرَّة في حياته ينتظر أمرًا من المستقبل، فهو ينتظر السُّوق والمدينة والأبقار والأغنام، وأمامه تبدو «تشيلي» مُمتدة كسجَّاد أحمر، وسيكون دخوله إلى «بونتا أريناس» فخورًا مستقيمًا على مطيَّته كدخول الفاتحين المهيب.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

٩

أمضوا ثلاثة أيام ليبلغوا المدينة، ثلاثة أيام ليعبروا المروج والجبال والجداول المُتدفِّقة، ثلاثة أيام أدمى فيها ظهرا الحصان والحمار أردافهم، ثلاثة أيام من الوجوم انطوى فيها كلٌّ منهم على نفسه كالنَّاسك المُتعبِّد. أخذ منهم التَّعب حين بلغوا «بونتا أريناس» مأخذًا كادوا معه يسقطون عن مطاياهم. فترجَّلوا عنها متهالكين، تعلو وجوههم علامات الإعياء، وفي كلِّ خطوة يخزهم وجعُ الكدمات في أردافهم، ولم يكن ذلك من دخول المنتصرين المهيب في شيء.

توجَّهوا رأسًا إلى البنك ليسحبوا منه مال لويس، إذ لم يكن في جيوبهم فلس واحد.

قال لويس لأنخل مُقترحًا: «عليك أن تنتظرنا بالخارج.»

«لماذا؟»

«لتحرس الدَّواب.»

فزمجر أنخل قائلًا: «لستُ حارس بهائم.»

تخلَّلت أصابع لويس شعره وهو يقول: «أصغ إليَّ... أعتقد أنه من الأفضل أن ندخل أنا والصَّبي فقط لنبدو أكثر احترامًا!»

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أغمض أنخل عينيه وصرَّ على أسنانه، فهمس لويس حانقًا: «أرجوك إنه بنك! مؤسَّسة مُراقبَة إلكترونيًّا!»

رمق أنخل البناية مُرتابًا، كانت رمادية مُكعَّبة لا روح فيها. ثُبِّتت فوق بابها كاميرا تراقب كما العسس، فتذكَّر سكِّينه وكلَّ ما فعله بها، أيكون ذلك مرئيًّا؟ وهل تستطيع الكاميرا أن تسبر أغوار نفسه حتى تراه على حقيقته؟ فقال: «اتَّفقنا، لكنَّ باولو سيبقى معي!»

«كلا، سيُرافقني!»

«سيبقى في الخارج!»

«بل في الدَّاخل!»

«في الخارج!»

أمسك باولو بيد لويس وقال: «لم أرَ في حياتي بنكًا من الدَّاخل.»

أحسَّ أنخل بقلبه ينقبض حتى أصبح في حجم الزبيبة. تساءل عمَّا يُدبِّره لويس وما يدور بخلده حتى يقول إنه من اللائق أن يدخل البنك مع الصَّبي؟ هل سيُخبر مُوظَّفة الشُّبَّاك أن باولو ابنه؟ وهل سيطلب من الصغير أن يناديه «أبي»؟ هل سيسلبه حقًّا الحبَّ والحنان وهذه السعادة العجيبة التي أكسبت وجوده معنًى؟

جثا لويس على رُكبتيه أمام الصَّبي وحاول أن يُصفِّف شعره الكثَّ الخشن بأصابعه، ثم رفع ياقة قميصه ونفض عن

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

يدي معطفه غبارًا جعل باولو يعطس، فأعطاه لويس منديلًا من القماش مُربَّع الشَّكل أبيض بياضًا ناصعًا، وقال وهو ينهض: «حسنًا، فلنذهبْ.»

تركهما أنخل يدخلان البنك معًا اليد في اليد، وبقي وحيدًا عاري الرأس تحت رذاذ المطر الذي أخذ يتساقط ليغشى أسطح «بونتا أريناس» الملوَّنة ببلَّورات صغيرة كحبَّات السُّكَّر.

حين دخلا البنك، نزع باولو عن يديه القفَّازات التي أخذها من أغراض مُتسلِّق الجبال، وأسلم نفسه للحرارة المنبعثة من جهاز التدفئة تغمره. كان الناس يروحون جيئة وذهابًا أو ينتظمون في الصُّفوف مُنتظرين بصبر أمام مكاتب الصِّرافة، وكان هناك رجال من المدينة ببزَّات رمادية، وبحَّارة بمعاطفهم الصفراء الواقية من المطر، وقرويُّون بمعاطف من الجلد، ونساء؛ منذ عهد بعيد، بعيد جدًّا لم يرَ باولو امرأة، منذ وفاة والدته بالضَّبط. كان ينظر إليهنَّ بفضول كبير، فكثير من موظَّفات البنك كنَّ يرتدين تنُّورات وأحذية كعب عالية. وقد لاحظ باولو أن لويس يتطلَّع إلى النِّساء أيضًا ويتفحَّصهن بتمعُّن.

اتَّخذا مكانيهما في الصَّف قُبالة شُبَّاك الصَّرف، فقد كان وجودهما في بنك يبعث فيهما إحساسًا غريبًا بعد زمن طويل قضياه في المنزل المُنعزل، وبعد هذه الأيام القليلة التي قضياها في الطريق. فهنا لا تُسمع الرِّيح ولا المطر، إنما ضجيج أصوات، وطنين آلات، ورنين هواتف، ليبدو العالم الخارجيُّ خياليًّا من وراء

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الزُّجاج البُنِّي. ودَّ باولو الذي لم تطأ قدماه بساط موكيت قَطُّ لو نزع حذاءه ليتحسَّس نعومته، فقد بدا له البنك عالمًا هادئًا عجيبًا، فخمًا، مُتحضِّرًا، مقارنة بعالمه المليء بالحجارة والتربة والرِّيح، حتى خُيِّلَ إليه أنه اخترق الزمن والفضاء ليحطَّ على كوكب مختلف عن كوكبه، ورغم ذلك لم يشعر بالخوف، فقد كان وجود لويس إلى جانبه يُطمئنه، فهو عارف بشؤون المدينة، ويمكن أن يثق فيه.

لمَّا بلغا شُبَّاك الصَّرف كان على باولو أن يقف على أطراف أصابعه ليرى ما وراءه، فأرسلت له امرأة ذات شَعر أشيب بابتسامة رقيقة، ثم سألت لويس عن حاجته، ففتح جرابه وأخرج منه محفظته، ثم مدَّ إلى السيدة ببطاقة هويَّته. التفتت للحظة إلى شاشة الحاسوب وجدَّدت ابتسامتها، ثم طلبت من لويس ملء استمارة. خلال كلِّ ذلك كان باولو يتأمَّل النباتات في الأصص، والساعة الحائطية المُعلَّقة، والخزائن ذات الرُّفوف المعدنية التي كان الموظَّفون يتردَّدون عليها تِباعًا ليأخذوا منها أوراقًا يُوزِّعونها بعد ذلك متنافسين على الحرفاء الهادئين الذين ساعدهم دفء المكان على النَّوم. هنا لا أحد يصطاد الثَّعابين، ولا أحد يستلُّ سكِّينه غدرًا، ولا أحد ينتف ريش الدَّجاج، بل توجد أيضًا حنفية في الركن عليها أقداح من البلاستيك. ولاحظ باولو أن الناس حين تتلاقى عيونهم كانوا يتبادلون عبارات مثل «صباح الخير»، و«إلى اللقاء»، و«كيف حالك»، كم بدا له ذلك بسيطًا وممتعًا!

وأخيرًا مدَّت المرأة إلى لويس رزمة من الأوراق النَّقدية

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الجديدة من وراء الشُّبَّاك، وقالت مُستفسرة: «لعلَّ ابنك يريد قطعة حلوى؟»

قال لويس: «أتريد ذلك يا باولو؟»

هزَّ باولو رأسه مُوافقًا. كان يجهل ما هي الحلوى، لكنه كان مُستعدًّا أن يقبل أيَّ شيء من هذه السيدة الطَّيبة التي مدَّت إليه سلَّة صغيرة، فحدَّق في الأوراق الملوَّنة واختار منها واحدة صفراء، فابتسمت المرأة مرَّة أخرى وقالت: «أنا أيضًا أُفضِّل الصفراء.»

وتألقت عينا الجدة الطَّيبتان فيها حنانًا حينما التقتا بعيني الصَّبي.

ثم حان وقت مغادرة البنك فزرَّر باولو معطفه على مضض، وخرج دافئًا رأسه بين كتفيه. ضمَّ قبضة يده على قطعة الحلوى وهو خارج وقد قرَّ عزمه على أن يحتفظ بها طول حياته كأنها تميمة؛ فغلافها الأصفر الذي بدا كشعاع شمس نزل من السماء لن يكون إلا طالع خير عليه.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

Twitter: @ketab_n

www.kutub-pdf.net

١٠

لن تُقام سوق الدَّواب إلا بعد غدٍ، وحتى ذلك الحين ستغطِّي أموال لويس كلفة الأكل والإقامة، ويبقى منها بعد ذلك ما يشترون به بعض الأغنام، بل وبقرة.

حصل لويس على عنوان فندق في شمال المدينة، قَبِل أصحابه إيواء الحمار والحصان، وعَرَضوا عليهم غُرفتين مُجهزتين بمغسلين، مقابل مبلغ زهيد من المال، فاتَّجهوا إليه تحت المطر آخر النهار. كان أنخل حانقًا على ما حصل في البنك، فظلَّ واجمًا يحاول أن يسلك بالحصان مسالك العجلات مُتفاديًا الحفر، وكان لويس يصرخ ألمًا مع كل قفزة فقد ذاق ردفاه سوء العذاب.

بدا الفندق وكأنه بيت أشباح، أو مأوى خطر، وكان سطحه المُحدب ينزل إلى النوافذ الضيقة القذرة التي صبغها العفن المتراكم من الدَّاخل لأنها لم تُفتح قَطُّ. وحالَ دخول المسافر إليه تقتحم أنفه رائحة كلاب مُبتلَّة وعرق آدمي يقطعان الشَّهية، ولم يكن ذلك أمرًا سيِّئًا نظرًا إلى رداءة الطَّعام. كان صاحب الفندق الذي أخذ لويس وأنخل إلى الغرف رجلًا قصيرًا نحيلًا ذا لحية صفراء،

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

لا يتوقَّف عن قضم عقب غليونه القديم، وفي الوقت نفسه كان باولو قد قاد الدواب إلى الفناء الخلفي تحت إفريز أُعدَّ ليكون إسطبلًا، فعَلِق بنعليه ما اختلط من وحل وروث، وقد تذكَّر البنك وهو يَخبِط وسط هذه القذارة، فشدَّ قبضة يده على الحلوى بما أُوتي من قوة، وسأل نفسه لماذا يرضى أن يسكن تلك الأماكن في الوقت الذي توجد فيه منازل دافئة مفروشة بسجاد الموكيت؟

قدَّمت لهم زوجة صاحب الفندق في القاعة الكبيرة حَساء مالحًا جدًّا بلحم الضَّأن، وإبريق نبيذ طغى عليه الماء. كانت الطاولات قد اتَّخذت من الشَّحم طلاء، وتخللت أسطحها الثُّقوب، أما كراسيها فكانت عرجاء، وأما المدفأة فقد كساها السُّخام، وكانت سحابةٌ كثيفة من الدُّخان تعلو رؤوس الحاضرين كضباب البحر المتصاعد، ولم تكن بالفندق غير غرفتين لثلاثة أشخاص، الأمر الذي طرح مشكلة في تقاسمهما. فمع مَن سيبيت باولو؟ فقال أنخل مُقرِّرا: «سينام معي فأنا والده!»

قال لويس مُعترضًا: «تبدو غرفتي أكثر دفئًا.»

«لكنها ضيقة!»

«أعتقد أني رأيت المغسل في غرفتك مَسدودًا...»

«لا حاجة لباولو لأن يغتسل!»

كان باولو يتطلَّع إلى اللوحات المُعلَّقة في جدران القاعة وهو يلوك قطع اللحم، كانت رسومات تُجسِّد مشاهد من الحياة في «بونتا أريناس»: قارب صيد في الميناء، أو خروجًا من الكنيسة

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

تحت ضوء الشمس، أو سوقًا. لم تكن هذه اللوحات رديئة. نهض باولو وقد شدَّته ألوانها، فاقترب من تلك التي تُصوِّر الميناء، ومدَّ يده ليتحسَّس سطحها، فهتف به صاحب الفندق من آخر القاعة قائلًا: «لا تلمسها يا صغيري!»

انتفض باولو لذلك ودسَّ يده في جيبه. فجاءه صاحب الفندق وسأله: «أأعجبتك؟»

رفع إليه باولو عينيه وقال: «لم أرَ في حياتي قَطُّ...»

«ألم ترَ لوحة قَطُّ؟»

حرَّك باولو رأسه بالنَّفي، فنظر إليه الرَّجل بذهول وإشفاق: «لقد رسمَتها «داليا» ابنتي.»

ثم توجَّه صاحب الفندق إلى لويس وأنخل قائلًا: «إنها معروضة للبيع إذا أردتما ذلك.»

نهض لويس بدوره ليقف بجانب باولو ونظر إلى الرَّسم عن قرب: «أأعجبتك؟»

قال باولو هامسًا: «أجل.»

فسأل لويس صاحب الفندق: «كم ثمنها؟»

أشار الرَّجل عليه بأن ينتظر هنيهة، وعَبَر القاعة ليتوارى خلف باب صغير. نهض أنخل بدوره عن الطاولة وقد أحسَّ بخطر داهم، فقال: «أنت فخور بمالك، أليس كذلك؟»

فردَّ عليه لويس بهدوء: «لستُ فخورًا به، أنا أستعمله، فقط لا غير.»

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

وبعد دقائق معدودة عاد صاحب الفندق ومعه صَبية. «هذه داليا ابنتي.»

اقتربت الصَّبية على استحياء. كانت ترتدي سُترة عملٍ من القماش الخشن، وقد أرسلت شالًا على كتفيها، وبدا وجهها مُشرقًا مثل فجر رقيق تحت شعر مُتهدِّل فاحم شدَّته إلى الوراء بمشط. أحسَّ باولو بارتباك حينما التقت عيناه عينيها وهي تقول: «ألأجلك أنت؟»

ظلَّ باولو صامتًا، فردَّ لويس عوضًا عنه قائلًا: «أجل، أودُّ أن أهديَه إياها.»

فقال أنخل مُوضِّحا: «لم نتَّفق بعدُ على ذلك!»

التفتت الصَّبية إلى صاحب الصَّوت الخشن فابتلع القاتل ريقه بصعوبة، وقال لهم صاحب الفندق مُقترحًا: «اجلسوا وسأسقيكم نبيذًا مُعتَّقًا هديةً مني.»

تحلَّق أربعتهم حول الطاولة؛ فجلس باولو ولويس مقابل داليا، في حين جلس أنخل إلى جانبها، فللاجتماع على الشُّرب دوافع كثيرة. وطفقت الشَّابة تُحدِّثهم عن رسمها، وألوان المدينة، وجولاتها، وطريقة اختيار مواضيعها، بوجه مُعبِّرٍ وعينين تتألقان كنار مُتَّقدة: «أردت أن ألتحق بمعهد الفنون الجميلة بـ«سانتياغو»، ولكن أعوزنا المال لتوفير ثمن رحلة القطار واستئجار غرفة وشراء الأدوات اللازمة لذلك، فأنا أرسم وأسعى إلى بيع بعض اللَّوحات لادِّخار النُّقود، وأنا أتخذ مكانًا من السُّوق مرَّة في الأسبوع، عسى

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أن يشتري مني سائح أحيانًا لوحة أو لوحتين، أما هنا في الفندق فأنا أُعلِّقها للزِّينة؛ فالقرويُّون لا يكترثون للرَّسم...»

وتعلَّقت عيناها بباولو: «من حُسن الحظِّ أن يكون هناك أنفس رقيقة وأطفال تهتم عيونهم بالجمال.»

ابتسمت له، فأسهب لويس في الحديث عن معارض «فالباريزو» مُعدِّدًا أسماء الرَّسامين المشهورين في جُمل طويلة مُعقَّدة ليصمت هنيهة فينتقي ألفاظه، ويستعرض تواريخ، ويتحمَّس لذكر ألوان غريبةٍ أسماؤها تستثير خيالَ باولو، مثل: الزَّنجفري، والقرمزي، والأزرق البروسي، والعنبري، والزُّمرُّدي... وبدت داليا مشغوفة، وتداخلت كلماتهما وتراقصت في أذني باولو في الوقت الذي كاد أنخل يفقد فيه زمام أمره؛ فسأل داليا قائلًا: «أترغبين في كأس أخرى؟»

«بكلِّ سرور.»

لاحظ باولو أن يد أنخل لم تكد تبلغ يد الصَّبية حتى انسكب شيء من النَّبيذ إلى جانب الكأس، ثم قال لويس وقد اتَّخذ قراره: «سأشتري منك هذه اللوحة التي تُصوِّر الميناء، وسأقبل ما تطلبينه ثمنًا.»

نظرت داليا إلى باولو من جديد وقالت: «أنت محظوظ أن يكون لك أب بمثل هذه الطِّيبة.»

فتح أنخل فاه، لكنَّ باولو بادر بالقول مُوضِّحًا: «لويس ليس بأبي.»

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

رفعت الصَّبية حاجبيها والتفتت إلى أنخل، فقد بدا لها أنه من المستحيل أن يكون هذا الرَّجل برقبة الثَّور ويدي الحيوان أبًا لهذا الطِّفل الرَّقيق. أحسَّ أنخل بالرِّيبة والشَّك يثقلان عليه، وودَّ للحظة لو غادر المكان، لكنه أرغم نفسه على أن يظلَّ جالسًا.

نهضت داليا وذهبت لتنزع اللوحة من الجدار وسألت باولو: «كم عُمرك؟»

«لا أعلم.»

فقالت ضاحكة: «واسمك. هل تعرفه؟»

«باولو. باولو بولوفاردو.»

وضعت اللوحة مقلوبة على رُكبتيها، وأخرجت من جيب سُترتها قلمًا لبديًّا، وكتبت على ظهرها: «من أجل عيني باولو بولوفاردو المُتألِّقتين، ذات مساء في «بونتا أريناس».» ثم مدَّتها إلى الصَّبي.

أَفْهَمَ لويس داليا أنه لا يودُّ أن يُخرج ماله على الملأ في القاعة التي تغصُّ بالحاضرين، ودعاها إلى الصُّعود معه إلى غرفته، فهزَّت داليا رأسها موافقة، وتورَّدت وجنتاها، وأحسَّ باولو بقُشَعرِيرة تسري في رقبته.

أمسك لويس يد داليا ونهض، ثم التفت إلى أنخل الذي ظلَّ مُسمَّرًا في كرسيِّه وقد امتقع وجهه، وقال له: «اتَّفقنا، سينام باولو معك، وسأبقى وحيدًا... لا ضير في ذلك!»

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

١١

لم ينم أنخل ليلتها، كان يُفكِّر مُجدَّدًا في التَّخلُّص من لويس، لكنه لم يرَ لذلك من حلٍّ غير قتله، وهذا ما يقضُّ مضجعه. وبين فورة غضب وأخرى كانت تتناهى إلى سمعه أنفاس باولو الوادعة، فيحسُّ وكأنها تضمِّد حرقة نفسه، ثم يلمُّ به وجه داليا المُشرق، وشعرها وعيناها المتَّقدتان مثل الجمر، فيعاوده الشُّعور بالاختناق من جديد.

لم يقوَ على تحمُّل ذلك، فانتعل في النهاية حذاءه وخرج. كم هي السَّاعة يا ترى؟ كان رواق الطابق الأول من الفندق ساكنًا، فاسترق السَّمع على باب غرفة لويس فلم يلتقط شيئًا، إن هذا الصَّمت أثقلُ عليه من أيِّ شيء آخر. نزل السُّلَّم وكانت درجاته تئزُّ تحت قدميه، ثم فتح باب الدُّخول تاركًا الرِّيح الباردة تلفح وجهه، فقد أحس موجة من الألم والعنف تغمره، أو شيئًا أعظم من أن يحتويه جسده، فرمى بنفسه خارجًا في الليل الرَّطب.

كان يُخيَّل إليه أنه يسير في حلم عندما نزل مُتوجِّهًا إلى وسط المدينة، إذ تداخلت الأزمنة، فرأى المدن الأخرى وحياته الماضية

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

وليالِيها، وكانت قد طفت إلى ذاكرته «تالكاهوانو»، و«تيموكو»، حالما دخل «بونتا أريناس» - صور وأحاسيس وليل وضوء الحانات، واللكمات والمعارك والخوف والحقد والاشمئزاز. أخذ يركض، وفي نهاية الطريق بدت له الأضواء تتراقص في الأسفل، وكأن أنخل قد سكر من الألم.

كانت الحانة الأولى التي دخلها مُكتظةً بجمع من الشَّباب والشَّابات يضحكون ويرقصون بين الطاولات، وقد علم أنهم يحتفلون بخروج مركب صيد سيُبحر مع الفجر بعد قليل؛ فهؤلاء الرجال الذين احمرَّت وجوههم سيقضون في عرض البحر أسابيع محرومين من كلِّ شيء، تحت رحمة المحيط ينتظرون الموت يطرق بابهم فينغمسون في الشُّرب والرَّقص.

لم يدرِ أنخل كيف وجد نفسه وبيده كأس جعة، ثم أخرى، وتلتهما ثالثة. انخرط مع الجميع في الضَّحك والرَّقص، ولكنه أحسَّ بأنه لم يعد كما كان، فكأنه انقسم إلى نصفين، أو ترك روحه على الرصيف. وبينما كان يرقص شعر بسكِّينه تهتزُّ في جيبه من جهة صدره مثل قلب ثانٍ.

بعد ذلك ولمَّا كان مُتهالكًا على مقعد تهاوت عليه فتاة شقراء ثملة، وضعت رأسها على كتفه، وانبعثت منها رائحة التَّبغ والكحول والعرق. هزَّها فرأى في عينيها الهائمتين صورته - وجهه المُجعَّد ولحيته القذرة وتكشيرة رجل وقع فريسة للجنون. وانتابه خاطر،

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

فرفع الفتاة إلى فمه، ولم يدرِ ماذا يفعل بها، كان الجميع من حولهما يحتفلون في غناء ورقص دائريٍّ أهوج. ارتخت ذراعا أنخل لتنزلق الفتاة مع ظهر المقعد وهي تمزح وتُثرثر دون أن يفهم منها شيئًا. أسند كفَّيه إلى الحائط القذر ليلتقط أنفاسه، فلمح من تحته صدر الفتاة يعلو وينخفض، فقد نامت أرضًا بين بقايا الوحل والأوراق المُبلَّلة. لم يقوَ أنخل على أن يبلع ريقه. أمَّا هذه المرَّة فلا. هو لا يستطيع، بل هو لا يرغب في هذه الفتاة، ولا في داليا، ولا أيِّ امرأة أخرى!

نهض وقد سُرِّيَ عنه فشقَّ جموع المُحتفلين بجهد ليجد نفسه في الخارج. أمضى بقية الليل يذرع الشَّوارع المتاخمة للميناء دون إحساس بالزَّمن، كان يبصق ويصيح في العتمة، يألم من نفسه ومن العالم. وفي هذه اللحظة بالذَّات تمنَّى لو كان شخصًا آخر. وأخيرًا توقَّف مع تباشير الصَّباح حين غشى شعاع نور فاقع وجه البحر، وأحسَّ بالبرد فجأة، فأدرك أن الحمَّى قد زالت عنه، فحمحم وقرَّر العودة إلى الفندق، فباولو سيستفيق بعد قليل. ما الذي سيقوله إذا لم يجد أحدًا إلى جانبه؟ سيحسُّ بأنه مهمل.

انطلق أنخل جريًا نحو أعالي المدينة. كان يستنشق برد الشُّروق، وينفث من منخريه ما ترسَّب فيه من شراسة وعنف.

حينما دلف إلى الغرفة وجد باولو قد تكوَّر على السرير في هدوء كعادته، فجلس على طرف المرتبة، ومسح على جبين الصَّبي

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

في لُطف بأطراف أصابعه. ظلَّ على تلك الحال ساعة دون حِراك، وبدا له أنه يكتشف معنى الوجود لأول مرَّة؛ إذ ليس الوجود إلا ولادة الفجر المُتردِّدة، وأنفاس طفل نائم، ورجلًا بيدي سفَّاح غليظتين يجلس في العتمة ينهشه الألم.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

١٢

أفاق باولو لثقل أحسَّ به على ساقيه، اعتدل فرأى أنخل مُمدَّدا عرضَ السَّرير بكامل ثيابه، وكان جسده هو ما يثقله. انسلَّ باولو من تحته، ومال على وجه الرَّجل فأحسَّ بأنفاسه الحارة فاطمأن عليه، إذ ظنَّه للحظة في سكرة استفاقته ميِّتًا قد سحقته قوة خارقة. أزاح عنه الغطاء لينزل من السَّرير، وجعل يتأمَّل، وهو يرتدي ثيابه، اللوحةَ التي نصبها البارحة على الصُّوان ببحرها وميناءها وقاربها وصفرة المعاطف الواقية من المطر. وحينما أسدل جفنيه قليلًا خُيِّلَ إليه أن اللوحة تكتنفه، ورائحة السَّمك تخترق أنفه. انشرح صدره، وتحرَّك شيء ما في أعماق وجدانه حيَّره وأعجبه أيَّما إعجاب.

كان شخير أنخل يتصاعد فوق السَّرير، فغادر باولو الغُرفة، ولمَّا لم يجد لويس في الأسفل ولم يجرؤ أن يطرق بابه، اتَّجه إلى الحمار والحصان، فهما على أيِّ حال يقومان مقام الرَّجلين. طلع النهار بوجه مُكفهرٍّ على الفناء الموحل، وكان باولو يقفز مُتجنِّبًا البِرَك الصغيرة، ووصل تحت الإفريز حيث الحمار والحصان بوبرهما اللامع من الرطوبة يكدِفان جوعًا. قدَّم لهما علفًا وجده موضوعًا

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

جانبًا، ثم جلس على سرج قديم يراقبهما يأكلان، وخلفه عُلِّقت على مسامير صدئة أدوات عديدة نسيها فرسان نزلوا بالمكان: بُسُط سروج، وأحزمة، وأمشاطٌ حديدية، ومحسَّات، وأعنَّة... أخذ باولو سَوطًا من الجلد وطفق يلعب بُرهة من الزمن، وذلك بجلد بعض القشِّ الذي تطاير من حوله، وبعد أن تناثر القشُّ خطَّ بمقبض السَّوط علامات على أديم الأرض الطِّينية، فرسم أولًا خطوطًا كما اتَّفق دون أن يُفكِّر فيها، ثم نزل عن السَّرج وحزم أمره، وقد رأى أنه يمكن أن يستخدم السَّوط. كانت الكلمات تُرسم أشكالها في الوحل أفضل منها على أوراق لويس البيضاء: باولو، تشيلي، ثعلب، سكِّين، جرَّة.

تأمَّل النتيجة، وتبعًا لذلك فكَّر ثم كتب على استحياء حرف: «ل» ثم «و» ثم «ح» ثم «ت»... «لوحت».

وسمع صوتًا في الفناء يقول: «صباح الخير يا باولو!»

ارتجف الصَّبي واحمرَّ خجلًا وهو يرى داليا تقترب منه، فداس ما كتبه على الوحل، ودفع فوقه بسرعة القشَّ. لحقت به داليا تحت الإفريز، وقد تلفَّعت بشالها فربَّتت على عنق الحمار ثم على عنق الحصان.

«أهما ملكك؟»

«أجل.»

«أرى أنك تهتمُّ بهما.»

«أجل.»

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

قرفصت أمامه: «يبدو أنك جئت تقصد سوق الدَّواب؟»

«أجل.»

«مَن يكون من بينهما والدك الحقيقي؟ لويس أم أنخل؟»

عبس باولو وطأطأ رأسه. بمَ سيجيب؟ فلا أحد منهما طبعًا كان والده الحقيقي، لكن كيف له أن يُفاضل بينهما؟ فأنخل اهتمَّ به وأطعمه وأهداه ثعلبًا، أما لويس فقد علَّمه الحروف وجمال الشِّعر وأهداه لوحة؛ الرَّجلان يجعلانه يتألم ويعيش في الوقت نفسه كأنهما أبواه! شعرت داليا بحَرجه فغيَّرت الموضوع: «كم من الغنم تودُّ أن تشتري؟»

«لا أعرف.»

«عشرة؟»

«أجل.»

«عشرة من الأغنام تتطلَّب مالًا كثيرًا!»

«وبقرة أيضًا!»

«إذن فلويس يملك مالًا كثيرًا؟»

«كثيرًا. هو يذهب إلى البنك ويطلب من المرأة اللطيفة. وهي تُعطيه الأوراق النَّقدية. أما أنا فأعطتني...»

سكت باولو عن الكلام إذ لم تكن به رغبة في الحديث عن حلواه جالبة الحظِّ التي يخشى أن يبطل مفعولها السِّحريُّ إن هو أفشى سرَّ وجودها.

«ماذا أعطتك؟»

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

«لا شيء، كأسًا من الماء.»

ضحكت داليا وقالت: «أنت صَبيٌّ غريب!»

وضعت يدها الباردة على شعر باولو الكثِّ، واقتربت منه وطوَّقته بذراعيها، ورسمت قُبلةً على خدِّه، ثم نهضت ومضت مُسرعة عبر الفناء راجعة إلى الفندق، فقد كان الطَّقس باردًا. وحينما رآها تتوارى أحسَّ باولو بالحزن يغمره، حزن لم يألفه من قبل حتى عندما يتذكَّر أمه هناك تحت كومة التُّراب. كان حزنًا شديدًا وعميقًا، لكنه جميل أيضًا، وحميميٌّ جدًّا، وخفيٌّ جدًّا، يختزن بلا شك حقيقةً جليلةً لكلِّ من رام أن يسبر أغوار نفسه.

نظر إلى السَّوط الذي ظلَّ مُمسكًا به كل هذا الوقت. فالكلمات «جرَّة» «تشيلي» وحتى «لوحت» لا تستطيع أن تُعبِّر عمَّا ألمَّ به من إحساس!

حينما استيقظ أنخل وجد أن باولو قد غادر السَّرير فأحسَّ بوحدة قاسية. فتح حنفية المغسل ورش وجهه بالماء، ونظر إليه في المرآة المُعلَّقة التي علاها الصَّدأ، وسأل نفسه إن كان يستحقُّ الحياة؛ فهو سيبلغ السابعة والثلاثين، وهي السِّنُّ التي تُوفِّي فيها والده مَسلولًا. وضع أنخل يده على صدره. ألا يحسُّ هو أيضًا برئتيه تؤلمانه؟ أليس من العدل أن يموت هو بدوره؟ ولو أن ذلك لن يثأر لكلِّ مَن قتلهم، السُّلُّ مرض نجس، فقد كان ابن خمس حينما كان والده يتلوَّى ألمًا قبل أن يبصق دمًا أسود، وما زال يتذكَّر ذلك إلى الآن. وعاش حياته كاملة وسط رائحة الدَّم.

بينما كان نائمًا خرج باولو. مع لويس؟ مع لويس وداليا؟ فإذا

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

كان الأمر كذلك فليس له إلا أن يموت هذا اليوم، فلم يعد له في الحياة ما يعيش من أجله!

مسح وجهه بكُمِّه وخرج من الغرفة، لا أحد في الرُّواق، لكنه سمع همسات وضحكات فطرق باب لويس.

«مَن بالباب؟»

«أنخل!»

«لحظة.»

سمع أصواتًا مكتومة وخُطى، ثم ظهر لويس بالباب أشعث، فسأله أنخل: «أين باولو؟»

«لا أعرف.»

فانطلق صوت داليا من خلف لويس قائلة: «رأيته مع الدَّواب تحت الإفريز.»

نظر أنخل إلى أعماق عيني لويس، ثم ابتسم ابتسامة غير منتظرة، لم يفهم لويس معناها لكنها بالنِّسبة إلى أنخل تعني بداية يوم جميل، جميل جدًّا. هو يوم جديد يقهر فيه الموت مع باولو الذي ينتظره تحت الإفريز. فلم يعد يهمُّه إن قضى لويس الليل مع داليا، ولم تعد تهمُّه سعادة الآخرين، وقال للويس: «أعطني مالًا، سأصطحب الصغير إلى الميناء وسأشتري له غداءً.»

هزَّ لويس رأسه موافقًا ووارب الباب، ثم عاد ومدَّ إلى أنخل ورقتين نقديَّتين: «يمكنك أنت أيضًا أن تشتري غداءً لنفسك. أما أنا فسأشتري لوحات!»

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

وغمزه، فقال أنخل: «شكرًا.»

استدار ونزل السُّلَّم الذي أزَّت درجاته تحت وطأة ثقل جسمه. فلم يعد يحسُّ بالغَيْرة. ويمكن لداليا أن تفعل ما تريد، ويمكن للويس أن يُقيم مَعرضًا، فهو لم يعد يأبه بذلك! فباولو لم يهجره، وكلُّ ما في الأمر أنه استيقظ مُبكرًا.

لكنَّ باولو لم يكن تحت الإفريز، والحمار قد اختفى. فاقتفى أنخل أثر حوافره في وحل الفناء، وأحسَّ كأن سكِّينًا قد أُغمدت في بطنه.

باولو! رحل! وحيدًا! ما الذي حدث؟ ما هذه الهواجس التي انتابته؟ هرع إلى الحصان واقتاده من عنانه ثم امتطاه وانطلق على عجل. خلَّفت حوافر الحمار على الأسفلت آثار وحل، لم تبتعد كثيرًا لتأخذه في اتِّجاه بعينه. ودون أن يُفكِّر اندفع رأسًا نحو الميناء؛ فقد بدأ يفهم باولو، وهناك يجب أن يبحث عنه في المكان الذي تبحر منه القوارب وفيه ترسو، في المكان الذي يحلو للرَّسامين أن يرسموها فيه.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

١٣

تعتمل في النفس أشياء عديدة عندما نتأمل البحر طويلًا. ويمكن أن يكون للسماء الأثر نفسه في ليلة جلية، مُنقشعة السُّحب، شرط أن نُركِّز دقائق طويلة على النجوم، وأن نتَمَثَّل الشُّموس، والكواكب، وتكوُّرهما، ويتطلَّب ذلك خيالًا جامحًا. أما مع البحر، فالامتداد حاضر، أمامنا، نتلمَّسه؛ ولذلك تعتمل في النفس أشياء عديدة.

لم يكن باولو في الميناء، على عكس ما كان يظنُّ أنخل، فقد اتخذ إلى مخرج المدينة طريقًا من الحصى تُذكِّره بتلك التي تؤدي إلى منزله، ولكنَّ هذه لم تكن تُفضي إلى الامتداد المُقفر الذي تعصف به الرِّياح، إنما كانت تنتهي فجأة إلى جرف يسبح بين أحضان بحر يُسمَّى «مضيق ماجلَّان». كان الحمار قد تعب، فربط باولو حبل عنانه في تجويف صخرة. اقترب من حافة الجرف تضطرب في قلبه مشاعر غريبة، وأخذ يتأمَّل البحر.

شيئًا فشيئًا، ولفرط ما تمعَّن في الأمواج والزَّبد والطُّيور المُحلِّقة عكس اتِّجاه الرِّيح نسي باولو جسده، فكان كمَن تخلَّص من جاذبية الأرض، ورأى نفسه تطير أو تطفو بين السماء والأرض في

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

خفة هباءة ثلج. وكان يحس أو يكاد تموُّجات الماء وتياراته، وكلما أحنى رأسه شعر كأنه يتكسَّر على الصُّخور؛ فقد تحوَّل إلى موجة. كان وهو يتحسَّس العُشب الأملس يحافظ على صلته بالكوكب. لم يكن قد درس قَطُّ الجغرافيا، ولا الجيولوجيا، ولا علم الفلك، ولكنه رأى بجلاء مكانه في الكون. بدا له أنه فهم كلَّ شيء، كأنما قد رُفعت الحُجب وسطعت الحقيقة أخيرًا في وضح النهار.

تراءى له من جديد مولده، والطريق الضَّيقة التي شقَّها في أحشاء أمه. ومع كلِّ نَفَس كان كمَن يستنشق الهواء لأول مرَّة، واستمع من جديد للصَّرخة التي أطلقها لحظة الولادة، هذه الصَّرخة التي كانت صدى جميع الصرخات التي أطلقتها كل أجيال البشر منذ الأزل.

ما الذي حلَّ بهذه الملايين من المواليد؟ منهم من قضى، ومنهم من شبَّ، وكان منهم المُعدمون والملوك والبحَّارة والمُزارعون، ومنهم مَن خاضوا المعارك منتصبي القامة شاهرين سيوف الفاتحين، وآخرون ارتعدت فرائصهم خوفًا وجثوا أرضًا على رماد منازلهم، يتوسَّلون السماء كالمجانين، أو الشعراء المكلومين. ضجَّ كلُّ هؤلاء البشر في نفس باولو قبل أن ينمحي ذلك أمام هذه البديهة الحزينة التي يتفطر لها قلبه: كان يفتقد حنان الأم.

بكى أمام البحر وحيدًا.

بكى دهرًا مديدًا.

وبكى دمعًا جديدًا.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

وفي الأثناء، كانت الرِّيح تُجفِّف له دمعه كلما تحدَّر، فارتسمت على خدَّيه خطوط بيضاء. لم يكن موت أمه ما يُبكيه، ولكن لمَّا كانت حية من قبل، هل لثمت خدَّه يومًا؟ هُوَ لا يذكُر ذلك! وهل أحسَّ يومًا قُربها بهذا الدفء الذي اجتاحه يوم ضمَّته داليا إليها؟ هُوَ لا يذكُر ذلك! كيف أمكن له أن يحيا دون ذلك؟!

أصدر الحمار نهيقًا، من خلفه.

فبصق باولو في البحر.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

Twitter: @ketab_n

www.kutub-pdf.net

١٤

كانت سنابك الحصان تدقُّ الطريق، وكان منخراه يرتجفان، وكان أنخل شبه واقف على الرِّكابيْن ينادي باسم باولو. لم يكن يرى شيئًا إلا بُقع ألوان، كالتي على لوحة داليا، وأشباحًا بملامح غير واضحة المعالم تفرُّ من أمامه.

كان الناس يصرخون: «فارس مجنون! فارس مجنون!»

كان أنخل وحصانه يشقَّان الحشد، ويتَّجهان صوب المراكب، ويقفزان فوق الحبال المشدودة، وأكوام البراميل، ومجموعات الصيادين بالصنارات وصناديق السَّمك. ولم يكن أحد يُدرك مَن كان يصهل، أهو الحصان أم الرَّجل؟ كانت عينا كليهما كعيني محموم!

صرخت امرأة: «ليستدع أحد الشُّرطة.»

وأضافت أخرى: «ومستشفى الأمراض العقلية.»

كانت أطراف معطف أنخل تتطاير وتتماوج حوله مستجيبة لمشيئة قفزات الحصان. كان وكأنه شبح خرج من عَدَمٍ، أو مخلوق قُدَّ من ألم يتوه في عالم غير عالمه.

وأخيرًا، وصل الشَّبح إلى نهاية الرصيف. انتصب الحصان

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

على قوائمه الخلفية أمام البحر، وصاح الرَّجل من جديد مناديًا باسم باولو! وقف وراءه أهل الميناء وقد اعترتهم الدَّهشة؛ فهم لم يشهدوا قَطُّ حادثة كهذه، فكان يجب إخطار السُّلطات.

ولكن في الوقت الذي اهتزت فيه خطوط الهاتف اختفى الرَّجل المجنون، الذي لم يعثر حتمًا على ما كان يبحث عنه. ولمَّا وصلت الشُّرطة إلى الميناء، لم يكن هو هناك. وقد قدَّم كثير من المُتسكِّعين أوصافه: بدت الشَّهادات مُتطابقة، وسيكون من اليسير رسم صورته الآلية. هل أتلف هذا الرَّجل شيئًا؟ نعم. هل قلب أعمدة صناديق فارغة وسحق سمكًا ميِّتًا؟ هل اعتدى هذا الرَّجل على أحد؟ نعم! لقد تسبَّب في سقوط صيَّاد خائف في مياه الميناء الآسنة الباردة. حسنًا، سنبحث عن هذا الرَّجل لاستجوابه وسنرى الأمر، ومن باب الحيطة، سنطَّلع على ملفَّات الشُّرطة في المقاطعات المجاورة ونُعمِّم أوصافه عليها بما في ذلك «سانتياغو».

كان أنخل قد انطلق مرَّة أخرى مُمتطيًا حصانه وهو يركض بسرعة، وعيناه مخضلَّتان بالدَّمع. كان يسير بمحاذاة الشَّاطئ مُتَّبعًا غريزته. سار في البدء في طرق مُعبَّدة، ثم في دروب موحشة تحني فيها الرِّيح النباتات. استمرَّ في الصِّياح باسم باولو وهو يركض، وصدره يجيش حُرقة. ماذا لو كان الطِّفل قد وقع في أيدي بعض المُجرمين؟ أو في أيدي بعض النَّخاسين؟ أو لو كان سقط؟ أو لو كان قد غرق؟

«باولووووو! باولووووو!»

فجأة، لمح أنخل الحمار يرعى على حافة الجرف، فجذب

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

عنان حصانه كي يُخفِّض من سرعته، وكاد قلبه يتوقَّف، فمن ذلك المكان لم يكن يرى الطِّفل. خطوة فخطوة في هدوء... كان يجب ألَّا يفزعه. وبينما كان يدور حول عوسج شائك، لمح شبح باولو، خلف الحمار مباشرة، وأخذ قلب أنخل في الخفقان، ولكن ماذا كان يفعل وحيدًا، وهو جالس على حافة الجرف؟ ترجَّل أنخل عن حصانه، وتقدَّم نحو باولو بحركة هادئة مثل الثُّعبان. كانت الرِّيح تُصفِّر في أذنيه، والبرد يلسعه، وكان البحر الواسع يمتدُّ أمامه، والجرف يتمايل مثل باخرة تترنح وسط الأمواج.

تمتم أنخل: «باولو...»

التفت الطِّفل. ولم يعد يفصل بينهما إلا متران أو ثلاثة أمتار. قال باولو: «سأقفز!»

أراد أنخل أن يصرخ، ولكنه تراجع. كان بعض الحصى قد تفتَّت بعد تحت أصابع الطِّفل الباكي. ما كان شيء يعوقه عن أن يسقط في الفراغ. سأله أنخل: «لماذا تريد أن تقفز؟»

«أريد أن أموت!»

«لماذا تريد أن تموت؟»

لم يُجبْ باولو والتفت إلى البحر. خطا أنخل خطوة إلى الأمام، كان كمَن يلعب لعبة «١، ٢، ٣... سوليي»، فتسمَّر في مكانه، وقد أحسَّ هشاشة الخيط الذي ما زال يربط الطِّفل بالأرض، والحياة في الوقت الرَّاهن.

سأل أنخل: «هل يمكن أن أقترب منك؟»

«لا. ستمنعني!»

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

«لماذا سأمنعك؟»

نظر باولو إلى أنخل.

فعاود أنخل كلامه: «حسب رأيك، لماذا سأمنعك؟»

«لأنك...»

وحرّك الحمار أذنيه، وواصل باولو قائلًا: «لأنك تفعل كل شيء لتُعارضني!»

«ليس هذا هو السبب الحقيقي!»

«آه صحيح؟ إذن لماذا قتلت والديَّ؟! ولماذا جئت إلى منزلي؟! ولماذا أهديت إليَّ ثَعلبًا؟!»

سارع أنخل إلى التفكير. وقال: «لقد أتيتُ كلَّ هذا، هذا صحيح، لماذا؟ لأنني أخرق!»

فارتسمت على شفتي الطِّفل ابتسامة لا تكاد تُرى، وقال مُؤمِّنًا على كلامه: «بل شديد الخَرق!»

ثم عبس من جديد.

«سأقفز الآن!»

«تمهَّل. لم أُتمَّ كلامي!»

زفر الحصان من منخريه، وصاحت الطُّيور في السماء، من فوقهما. ورغم أن النهار قد سطع كان يمكن تبيُّن القمر بين سحابتين مُتباعدتين.

قال أنخل: «أعطاني لويس ورقتين نقديَّتين، واحدة لك، وواحدة لي. أريد أن أدعوك إلى أكلة شهية في المدينة!»

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

«لستُ جائعًا!»

«إثر ذلك، يمكن أن نتفرَّج على المحلَّات، والسُّفن، وأن نحلم بشيء ما، بحياة أخرى!»

«لستُ...»

قاطعه أنخل قائلًا: «مهلًا! ها هو ما أريد أن أقوله لك. إنه السبب الحقيقي. لقد بحثت عنك في الميناء، وناديت باسمك في كلِّ مكان في المدينة. أتدري لماذا؟»

جمع باولو قبضة يده فأحسَّ الحصيات تتجمَّع تحت أظافره، ثم سأله قائلًا: «ألأنك تحبُّني؟»

«أجل!»

كان أنخل قد انتهى إلى الاقتراب من الطِّفل، وهو يحادثه. ولم يعد يفصل بينهما إلا متر واحد. واستطاع أن يرى عيني باولو الحمراوين، وخدَّيه وقد علتهما خطوط بيضاء ترسم تعرُّجات، ومصبَّات أنهار، بل دلتا كبيرة بأكملها. سأل الطِّفلُ: «أتحبُّني حقًّا؟»

«حقًّا!»

رآه أنخل وهو يرتكز برجليه على حافة الجرف. ورأى مُؤخِّرته ترتفع وجسده يندفع إلى الأمام، ليظهر في زُرقة السماء الشاحبة. فندت عنه صرخة مكتومة وارتمى عليه، ويداه ممدودتان.

وتشابكت الأيدي، والثياب، والحركات، والحصى، والأنفاس، والصرخات. وأحْكَمَ أنخل ضمَّ ذراعيه على جسم باولو النحيل. لقد صمد جيِّدًا، وركَّز كلَّ ما أوتي من قوة الرجال في ذراعيه، وتراجع

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

إلى الوراء زاحفًا، بعيدًا جدًّا عن حافة الجرف، والطِّفل يحاول أن يتملَّص منه. ولمَّا زال الخطر، ثبَّت أنخل كتفي باولو إلى الأرض، فالتقت نظراتهما، وتمتم باولو: «لكنَّك لن تكون أمي أبدًا...»

أجاب أنخل: «هذا صحيح!»

قعد على الأرض، ثم رفع جسد الطِّفل، وضمَّه بذراعيه وهدهده بلُطف، ودون شعور منه طفق يُغنِّي. أيَّ أغنية كانت تلك التي انبثقت من عمق ذاكرته لتشدو بها شفتاه؟ أتكون أمه مَن غنَّته إياها يومًا ما، وهو صغير جدًّا حتى إنه لم يُدرك أنها كانت تُحتضر، أم أنه سرق هذه الأغنية؟ أتكون قد تناهت إلى سمعه عبر نافذة مفتوحة فسرقها كما سرق بقية الأشياء؟ لا يهمُّ. كان يُغنِّي لباولو بصدق مَن لم يغنِّ من قبل قَطُّ، وارتفع صوته فجأة، ولم يكن له من هَمٍّ غير طمأنته.

وزفر قائلًا: «لستُ إلا قاتلًا، لكنَّ هناك شيئًا أُدركه... إذا كان المرء حزينًا، وأسعفه الحظُّ بكتف ليبكي عليها، فيجب ألَّا يتردَّد!»

زاد من ضمِّ الفتى إلى حضنه، ثم أضاف: «ابكِ.»

وبينما كان باولو يبكي، أحسَّ بالحلوى جالبة الحظِّ، التي دسَّها في ثنايا جيب سرواله، تلامس فخذه، وكأنها كانت تثبت له أنه ما زال على قيد الحياة.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

١٥

عادا إلى الفندق مع آخر أشعة شمس النهار، وقد ملآ بطنيهما، وأيديهما باردة، وعيونهما تلمع، وقلباهما مُتهيِّجين تهيُّج بقعة في الجلد. في القاعة الكبرى، كانت الطاولات مرتَّبة: قد كستها أغطية مُزوَّقة بمُربَّعات بالية، مُبقَّعة، عليها أطباق غائرة تُتَّخذ للحَساء، وأباريقُ شراب. كانت داليا ولويس يتبادلان القُبَل قرب المدفأة، ويداهما مُتضامَّتان، غير مُكترثين برائحة الثُّوم المطبوخ الذي أخذ في اجتياح كامل القاعة.

قال لويس مُعلِّقًا: «كنت قد بدأت أقلق عليكما.»

فقال أنخل وهو يخلع معطفه: «هذا واضح!»

ثم أضاف لويس قائلًا: «تعالَ هنا، باولو!»

اقترب الصغير من النَّار خجلًا. لم يتجرَّأ على أن ينظر إلى داليا خشية أن يلمح في عينيها بريق ذاك الحُب الخاص، إنه سرُّ الكبار الذي يزيح الأطفال جانبًا. كان يخشى أن يُفسد ذلك ذكرى القُبلة الصَّباحية التي كانت تُوحي بالأُمومة والتي هزَّت كيانه.

«هل اعتنى بك أنخل جيدًا؟»

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

«أجل.»

«هل شاهدت السُّفن؟»

«أجل. ســ.فـ.يـ.نـ.ت.»

علت وجه لويس ابتسامة عريضة: «حسنًا، حسنًا جدًّا!»

قهقهت داليا وهي تضع يديها على فمها، فكاد باولو أن ينظر إليه، ولكنه أحجم عن ذلك.

قال لويس شارحًا، ولكن في شيء من السُّخرية: «لا تُكتب «سفينة» هكذا تمامًا. المهمُّ أنني فهمت ما أردت قوله، أليس كذلك؟ فلنحتسِ شيئًا!»

نهضت داليا لتجلب كؤوسًا وقِنِّينة شراب من المطبخ، فانتهز لويس ذلك كي يُجلِسَ باولو على رُكبتيه: «غدًا، يوم مُهمٌّ. سنذهب إلى سوق الدَّواب باكرًا، قبل أن يطلع النهار، سترى، ستُباع أفضل الحيوانات قبل الزَّوال.»

نزل باولو عن رُكبتيْ لويس لمَّا سمع داليا تعود. ما الذي سيحدث بعد السُّوق؟ هل ستعود معهم داليا كي تسكن معهم في المنزل المنعزل؟ يجب إذن أن يكون هناك حصان آخر.

اتخذ الأربعة مكانهم حول طاولة، ثم سكبوا الشراب في الكؤوس. حتى باولو كان له الحقُّ في أن يشرب، وأخذ في الاسترخاء شيئًا فشيئًا؛ فقد عاد الدِّفء إلى جسمه الآن. ارتمى على صدر أنخل الذي لم يعترِ وجهه ذلك المساء انقباضه المعهود. كان القاتل يضحك ويتبادل النَّخْب، سعيدًا، وحميميًّا مثل الرجال المُحترمين.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

انضمَّ إليهم صاحب الفندق، وحكى حكايات عن عمله، حدَّثهم بأنه منذ ثلاثين سنة، من يوم أن فتح دُكَّانًا في «بونتا أريناس»، مرَّت به أشياء غريبة، فمن هنا كانت تنطلق بعثات المغامرين: من بحَّارة الأشرعة أو المجاديف، ومغامرين من مختلف المجالات، من مظلِّيِّين، وعُشَّاق التَّزحلق على الأمواج، وكلٌّ مفتون بأقصى النِّصف الجنوبي للكُرة الأرضية، مخاطرين بحياتهم وأموالهم في سبيل تحقيقٍ غير مؤكد لأحلامهم.

كان صاحب الفندق يتحرَّك ويعضُّ غليونه عضًّا خفيفًا، وكانت رائحة التُّوم تعمُّ المكان أكثر بمرور الوقت، ومع مُشارفة الحَساء على النُّضج كان الرَّجل يُحدِّثهم عن ضياع بعض المغامرين أحيانًا، وكيف أن داليا كانت تساعد الشُّرطة برسم صورهم بقلم الرَّصاص الغليظ، حتى يوزِّعوا نشريَّات بحث عنهم. وكانت هذه المساعدة ناجحة، ولكن لم يكن أحد يرجو أن يختفي أحد المغامرين قَطُّ، ومع ذلك، وبفضل داليا، عُثر على بعضهم، فكان الجميع سعداء.

كان باولو قد نام على كُرسيِّه وقد اكتنفه شعور بالراحة، وكان جسمه يرتجف من وقت لآخر وهو يتذكَّر أنه كان من الممكن أن يموت هذا الصباح بالذَّات، وكان قد وعد أنخل بألَّا يُحدِّث أحدًا بذلك. فكلُّ الكلام الذي قِيل على حافة الجرف، وكلُّ ما صدر عنهما من تحركات، سيبقى مدفونًا في نفسيهما إلى الأبد، كما كان الحال مع الأبوين بولوفاردو والثَّعلب. ولمَّا تبادلا الوعود، ابتسم أنخل، فكلُّ تلك الأسرار ستجعلهما يبدآن في توطيد العلاقة بينهما.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أليس هذا ما يجب أن يكون بين أب وابنه، أو على الأقل... بين الأصدقاء؟

وفي صباح اليوم التالي، أيقظت يدا أنخل الباردتان الكبيرتان باولو من نومه بعد أن وضعهما على جبينه. فقد حان وقت الخروج إلى المدينة، والاتِّجاه إلى سوق المواشي.

«هل سنُغادر بعد حين؟»

«أجل.»

«هل سنحمل معنا خِرافنا وبقرتنا؟»

«أكيد!»

«ولويس؟»

هزَّ أنخل كتفيه.

«وداليا؟»

«اِلبسْ ثيابك بسرعة، أرجوك!»

استجاب الطِّفل، ودسَّ لوحة داليا في المعطف العازل للمطر الذي كان أنخل قد حمله معه، وتأكَّد من أن الحلوى ما زالت في مكانها، ثم وقف مُستعدًّا بالقرب من العتبة. كان أنخل من ورائه يُرتِّب الغرفة، والهدوء يعمُّ الفندق. مسح المِغسل بإسفنجة، ثم بسط بعناية الملاءات والأغطية. انتاب باولو إحساس بأنه يعيش لحظة فارقة في حياته، هنا، في هذا الصَّمت الذي لا يقطعه إلا حفيف الأغطية، ورائحة الثُّوم المُتبقية منذ البارحة. ومنذ ذلك الحين، وكلما كان ينتظر بفارغ الصَّبر حصول أمر ما، عادت به الذَّاكرة إلى هذا الشُّعور الذي ينتابه، وإلى هذه الرائحة نفسها.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

خرج لويس وداليا بدورهما إلى الردهة وهما يمشيان على أطراف الأصابع، وقد بدا عليهما الإعياء، لأنهما بلا شكٍّ لم يناما إلا قليلًا. وفي الأسفل، في القاعة الكبيرة الفارغة، شرب أربعتهم حليبًا ساخنًا، ثم أغلقوا ياقاتهم.

تمتم أنخل: «هيا بنا.»

غادروا الباحة المكسوَّة بالوحل، وعبروا الرُّواق، ونزلوا راجلين إلى السوق يقتادون الدَّواب من ألجمتها، دون أن يلقوا نظرة وداع على السَّقف المُحدب والنَّوافذ المُتَّسخة. كان باولو يُدرك رغم ذلك أنه يُفارق شيئًا مُهمًّا وهو يغادر هذا المكان، ولكنه أتى ما يأتيه الكبار الواثقون من أنفسهم، فلم يلتفت وراءه. حملت داليا معها كلَّ أدوات الرَّسم إلى جانب حقيبة كبيرة غطَّت ظهر الحمار كلَّه تقريبًا.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

Twitter: @ketab_n

www.kutub-pdf.net

١٦

في السُّوق، كان هناك حشد كبير، مزارعون أرجنتينيون جاؤوا من «باتاجونيا» المجاورة، مصحوبين بخرفانهم، وأبقارهم، وكلابهم، ونسائهم، وأبنائهم، كلُّهم تجمَّعوا هناك، وكأنهم في مُخيَّم للَّاجئين. كانوا يتدفَّؤُون حول المواقد ويشربون القهوة، وقد بدؤُوا المجادلة حول الأثمان. وكان الصِّغار ينامون على أكوام التِّبن، متكوِّرين، متلاصقين بعضهم إلى بعض، تحت رقابة النساء اللَّائي كُنَّ يسهرن على راحة هؤلاء الصِّغار بوجوه في لون الشَّمع تجعلهنَّ أشبه بالتَّماثيل.

حول السُّوق، كان هناك مزارعون أقلُّ حظًّا يبيعون أيضًا دوابَّهم. ورغم الأسيجة وتحذيرات المنظِّمين، فإن الاضطراب كان شديدًا.

وبعد أن ربط أنخل وباولو الحمار والحصان في مرابض وقتية في آخر الطريق، سارا حتى وصلا إلى السُّوق، تاركيْن لويس ودواليا خلفهما. وقد اتَّفقوا على أن يلتقوا لاحقًا لتبادل الانطباعات الأولى والنَّظرِ فيما يمكن شراؤه.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

قال باولو مُستذكرًا: «عشرة خرفان وبقرة.»

فغمغم لويس قائلًا: «أجل، أجل، سنرى.»

كان باولو يمسك يد أنخل. في هذا الغليان الذي يشتدُّ وصراخ الباعة، كان باولو يمشي وكأنه نائم، كما لو كان في حلم. هذا هو إذن الجوُّ في سوق الدَّواب! كان باولو شبه مُندهش، وشبه خائف، يقف على أطراف أصابع رجليه حتى يرى الثِّيران. لقد تعوَّد على رؤية الدَّواب الأصغر حجمًا. كانت هذه الوحوش ذات العضلات الكبيرة تصدمه.

قال له أنخل وهو يحمله بين يديه: «أتريد ثورًا؟»

قفز باولو على كتفيه. كان مشهد سوق الدَّواب من عَلٍ يُشبه البحر، مئات من الرجال والدَّواب تتماوج تحت الظِّلال حيث يرى المرء تيارات ترتسم، وأمواجًا تتحطَّم على حيطان من صفيح.

كانت الكلاب تنبح، والأبقار تخور، والخرفان تثغو، والباعة يصرخون ويضربون أيديهم بأيدي المشترين؛ كلُّ ذلك خلَّف ضجيجًا طفوليًّا واحتفاليًّا.

كان أنخل قد أبقى على بعض القطع النَّقدية من الورقتين الماليَّتين اللتين كان قد سلَّمهما له لويس بالأمس، وقد ظلَّت ترنُّ في جيبه كلما كان يمشي.

قال لباولو: «أتريد فطيرة؟»

سارا حتى وصلا إلى دُكَّان امرأة سمينة تدثَّرت بمعطف بونشو، كانت تقلي كُتلًا من العجين المُدوَّر في مقلاة كبيرة. وحولها

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

كانت رائحة الزَّيت المقليِّ تمتزج برائحة التِّبن المُبلَّل. تناول باولو الفطيرة بين راحتي يديه فأكلها وقد أحرق لسانه، ما أضحك أنخل.

«فلْنذهب الآن لمشاهدة المواشي عن قرب.»

توقَّفا أمام حظيرة مزدحمة بدواب سمينة ونظيفة. في داخلها، كان البائع قد بدأ بَعْدُ التَّفاوض مع مُزارعَين. تعلَّق باولو بالسِّياج، وصعد إلى الأعلى ومدَّ يده ليُداعب شاةً، في حين كان أنخل يقترب من البائع. ولمَّا رآه الرجال الثلاثة قادمًا تفرَّقوا وكفُّوا عن نقاشهم.

سأل أنخل: «كم ثمن الرَّأس؟»

ردَّ البائع: «تبعًا لما تريد.»

«نريد منها عشرة.»

«عشرة فقط؟»

ردَّ أنخل مُعلِّلًا: «مزرعتنا صغيرة.»

في تلك اللحظة، ناداه باولو صائحًا: «أريد هذه الشاة! أُنظر! لقد أصبحنا صديقَين!»

بدا الطِّفل مفتونًا وهو يداعب صوف الدَّابة، التي كانت طيِّعة بين يديه. التفت أنخل من جديد إلى البائع. قطَّب المزارعان اللَّذان كانا إلى جانبه حاجبيهما الغليظين، في شيء من الرِّيبة. أحسَّ أنخل بشيء يتحرَّك في بطنه، وبحنجرته تضيق فجأة. فما قرأه في عيون الرَّجلين لم يكن يُبشِّر بخير.

عجَّل في البحث عن باولو: «تعالَ.»

«ولكنْ شاتي!»

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

«ليس الآن.»

«ولماذا؟»

ردَّ أنخل مُعلِّلًا: «يجب أن نناقش الأمر مع لويس. أسرع.»

أمسك باولو من يده وجذبه نحوه قبل أن يختفي بين الحشود، وقلبه يدقُّ. وبحركة لاإرادية غطَّى رأسه بقُبَّعة المعطف. طفا على سطح نفسه خوف قديم، كما تطفو جُثة غريق على سطح مُستنقع. تلك النَّظرات! وهؤلاء الرجال! كم مرَّة لمح فجأة هذه النظرة المُرتابة في عيون الآخرين؟ عشرات المرَّات؟ ولكنَّ ذلك غاب لمُدة طويلة، منذ أن استقرَّ في المنزل البعيد المُنعزل.

سأل باولو: «لماذا تُسرع؟ إلى أين نحن ذاهبان؟»

مضى أنخل يشقُّ الحشود بحزم دون أن يكترث لما قاله باولو. وجدا نفسيهما في ساحة، خلف السُّوق. وكان النهار قد طلع. السماء صافية والشمس ساطعة فوق سطوح المنازل، مُبشِّرة بيوم جميل.

قال باولو مُندهشًا: «آه! البنك!»

حقًّا، لقد كان مبنى المؤسَّسة المُكعَّب ينتصب أمامهما، ففي اليوم الذي وصلوا فيه، لم ينتبه أنخل إلى وجود السُّوق، لأنها كانت فارغة وهادئة. تقدَّما نحو مجموعة الأشخاص الذين ينتظرون أن يفتح البنك. ومن بين هؤلاء الأشخاص، ميَّز أنخل لويس، وداليا التي كانت تحمل حقيبتها الكبيرة على ظهرها.

قال لويس مُتعجِّبًا: «أنتما هنا؟»

بدا عليه الانزعاج.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

قال باولو بحماس: «رأيت شاة! لقد أصبحنا صديقَين. أنا متأكِّد أنك ستحبُّها أيضًا!»

لمحت عيناه وجه لويس الشَّاحب، فأدرك أن شيئًا غير عاديٍّ يحدث. لم يكن باولو يعرف ما هو بالضَّبط، ولكنه فكَّر في أن لويس كان خائفًا. ما الشيء الذي يبعث على الخوف في مثل هذا اليوم المُفرح الرَّائع؟

سأل أنخل: «لماذا أتيت إلى البنك؟»

غمغم لويس قائلًا: «أنا... أخيرًا... يجب أن أ...»

شدَّته داليا من ذراعه وأتمَّت هي كلامه: «يجب أن نسحب مبلغًا من المال. ولن يكون للويس المبلغ الكافي لشراء عشرة خرفان!»

وأردف لويس مُوضِّحًا: «لم يكن شراء اللوحة في الحُسبان، ثم إن الورقتين اللتين سلَّمتهما إليك أمس...»

ظلَّ أنخل صامتًا. كانت قُبَّعة المعطف وهي تنسدل بتراخٍ على عينيه تلقي بظلال من الشك على مُحيَّاه.

سأل باولو: «هل يمكن أن آتي معك؟»

كان يتطلَّع بشغف إلى دخول هذا المكان السَّاحر من جديد، ويريد أن يشعر ببساط الموكيت تحت نعليه من جديد، ويرى الحنفية، وساعة الحائط البلَّورية، وكل الأشياء الجميلة.

«أنت تعرف أنني لن أتأخَّر كثيرًا هناك. سترافقني داليا، ليس من الضَّروري أن نتكدَّس أمام الشُّبَّاك. مجيئك معنا سيعيقنا!»

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

فتح باولو فمه ليحتجَّ. كان يريد أن يُذكِّر لويس كم أن الدُّخول إلى البنك صحبة طفل جالب للاحترام، فهذا ما قاله في المرَّة الماضية! فما الذي تغيَّر الآن؟ نظر باولو إلى داليا. طبعًا، ها هو سبب التَّغيُّر أمامه... ولكن فجأة، دفعه أنخل من الظَّهر فجعله يتقدَّم خطوة نحو لويس وقال: «الصغير يريد أن يأتي معك!»

فردَّ لويس: «ليس ضروريًّا!»

في اللحظة نفسها، انفتحت أبواب البنك، ولمح باولو المرأة ذات الشَّعر الأشيب تستقبل أوائل الزَّبائن بابتسامتها العريضة. فماذا لو أهدته قطعة حلوى أخرى؟ سيجعله ذلك يتمتَّع بحظَّين سعيدين!

قال أنخل آمرًا لويس: «لِتأخذ الصغير معك!»

أطلق لويس زفرة تسليم ومدَّ يده إلى باولو.

وما إن دخل، لفحت وجهه الحرارة المنبعثة من جهاز التدفئة، فابتسم. لم يتغيَّر شيء في البنك منذ أن دخله قبل يومين. ما زال ذلك الهدوء المُريح سائدًا، والجو الصامت الذي يجعل المرء يعتقد أنه قد دخل معبدًا.

في صفِّ الانتظار، كان لويس وداليا يتهامسان. عند الشُّبَّاك، كان هناك أشخاص آخرون يتكلَّمون بصوت منخفض وقد نشأ عن هذه المناقشات حفيف لطيف، شبيه بحفيف الرِّيح تهبُّ على أوراق الشجر. هزَّ باولو لويس من كُمِّه: «هل تعتقد أنه من حقِّي أن أتناول كوب ماء؟»

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

قال لويس: «اذهبْ.»

دنا الطِّفل شيئًا فشيئًا من حنفية الماء. تأمَّل للحظة الأقداح البلاستيكية المُكدَّسة، والحنفية، وانتبه إلى وجود دوَّاسة أسفل الآلة. أخذ قدحًا بجرأة ثم ضغط على الدوَّاسة برجله اليُمنى، فسال من الحنفية خيط ماء رفيع صافٍ. وضع باولو القدح في الأسفل وانتظر، اندهش أنه امتلأ عن آخره بسرعة، فأبعد رجله عن الدوَّاسة. أوصل القدح إلى شفتيه بحذر. أعاد العملية كثيرًا من المرَّات، وفي كلِّ مرَّة كانت تعتريه سعادة غامرة.

هناك في المنزل الذي يقع في أقصى مكان من الأرض، كان الماء محدود الكمِّية. فإذا ظهر للعيان قاع الدَّن، تردَّد المرء في استعمال الماء لأن ذلك يعني أنه يجب أن يخرج وسط الرِّيح، وفي البرد، وتحت المطر، ويتطلَّب ذلك السَّير حتى البئر وسحبَ الحبل الذي يدمي الأصابع، أما هنا، فضَغْطٌ بسيطٌ على الدوَّاسة، ويمكن لنا أن نشرب الماء حدَّ التُّخمة.

قال له رجل وهو يمرُّ بالقرب منه: «يجب أن تتوقَّف، أيُّها الصغير، هذه الحنفية ليست لُعبة!»

احمرَّ وجه باولو، وعجَّل في إرجاع القدح إلى مكانه، ثم عاد إلى الانضمام إلى لويس وداليا. كانا مُستندين إلى الشُّبَّاك، مائلين إلى الأمام. هزَّ باولو كُمَّ لويس، فقال بانزعاج: «ماذا تريد أيضًا؟»

«هل تعتقد أنه من حقِّي أن أتحصَّل على قطعة حلوى أخرى؟»

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

هزَّ لويس كتفيه والتفت. تسلَّل باولو بمحاذاة الشُّبَّاك بخجل. كان يريد أن يتأكَّد من وجود المرأة اللَّطيفة ذات الشَّعر الأشيب، وراء الشُّبَّاك، ولكنَّ جسم لويس كان يحجب عنه وجه الصَّرَّافة.

قال لويس في حِدَّة: «ما الدَّاعي إلى التَّصريح؟ أنا في عجلة من أمري!»

ردَّت الصَّرَّافة: «لأن المبلغ كبير، هكذا تجري الأمور، إنه القانون.»

قال لويس في توتُّر: «حسنًا! استدعي مدير الفرع!»

ثم إنه أحسَّ بوجود باولو بجانبه فنظر إليه مُغْضبًا: «اذهب والعبْ بعيدًا!»

فردَّ باولو: «ولكنَّ الحنفية ليست لُعبة.»

«إذن فلْتَخرجْ إلى أنخل!»

طأطأ باولو رأسه. لم تُعجبه مُطلقًا طريقة لويس في الكلام معه، ولا تصرُّفاته، ولا نظراته، ولا حاله... داليا هي السَّبب في كلِّ ذلك! فمِنْ يوم أن عرفها، تغيَّرت حاله. توجَّه باولو نحو باب الخروج بقلب كسير، فلن يتحصَّل هذه المرَّة على الحلوى، وامتلأ قلبه حُزنًا، ولمَّا دفع الباب كانت عيناه مُخضلَّتان بالدُّموع. سأله أنخل: «أين لويس؟»

لم يردَّ باولو لأنه كان يشعر باختناق.

«ماذا حصل لك؟»

جثا أنخل على رُكبتيه أمامه.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

«أتبكي؟ أبسبب لويس؟»

هزَّ باولو رأسه مُؤمِّنًا.

«لا يريد أن يشتري الخرفان، أليس كذلك؟»

مسح أنخل بأطراف أصابعه الدُّموع التي كانت تسيل على خدَّي الصَّبي: «لا تشغل بالك، أَعِدُكَ بأنك ستحصل على شاتك، سنتدبَّر الأمر بشكل أو بآخر، أقسم على ذلك.»

فجأة، رأى سحنة باولو تتغيَّر، وتحوَّل الحُزن إلى مفاجأة. بدت عيناه مُنشدَّتين إلى شيء فوق كتفيه. أراد أنخل أن يلتفت ليفهم سبب ما يدهشه، ولكنَّ باولو حاول أن يُغطِّي وجهه بيديه بإصرار. ثم زمجر قائلًا: «لا تتحرَّك!»

أحسَّ أنخل أن قلبه يتوقَّف مرَّة أخرى. قال وهو يصرُّ على أسنانه: «ماذا رأيت؟»

ردَّ باولو: «رجالًا.»

«ماذا يفعلون؟»

«إنهم خلفك، حذو مدخل السُّوق.»

«ماذا يفعلون؟»

«يضعون مُلصقات.»

كانت يدا باولو تضغطان على وجه أنخل كمكبس، مانعًا إياه عن أي حركة، فيما كانت عيناه حائرتين وهما تتابعان حركة مُعلِّقي المُلصقات.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

سأل أنخل: «ماذا يوجد في المُلصقات؟»

كان في باطنه يُدرك ذلك مُسبقًا، ولكنه كان يريد من الطِّفل أن يؤكِّده فعلًا، وبدقة.

قال باولو: «إنها صورتك. صورتك بقلم الرَّصاص الغليظ!»

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

١٧

تبادل الرَّجل والطِّفل النَّظر، لم يكونا في حاجة إلى الكلام حتى يتفاهما. وبمُجرَّد أن اختفى مُعلِّقو المُلصقات داخل السُّوق انتصب أنخل واقفًا في هدوء، سار بصحبة باولو نحو الإسطبل مُمسكًا بيده.

كان أنخل يتصبَّب عرقًا من تحت القُبَّعة؛ فهذا الشُّعور بالخطر يخنقه. فيما مضى، لمَّا كان يحسُّ بأنه مُراقَب، كان يكتفي بهجر كلِّ شيء والمغادرة. كان يتصرَّف دون تفكير كالحيوان المطارد؛ ففي أعماق نفسه، كان يعتبر ذلك شكلًا من أشكال اللَّعب. هي لُعبة بين رجال الشُّرطة والسَّارق... الفوز فيها لمن يكون أسرع. فلو قُدِّر له أن يُمسك به يومًا وأن ينتهي إلى السِّجن، فماذا يكون قد تغيَّر؟ ماذا؟ أنْ يعيش وحيدًا، في الخارج، أو معزولًا في زنزانة، إنه دائمًا الألم نفسه! ولكنَّ هذه المرَّة، لا يتعلَّق الأمر بمُجرَّد لُعبة.

كان أنخل يشعر بيد باولو الصغيرة في يده، وكان يُدرك أنه لن يتحمَّل أن يبعدوه عن الصَّبي. فإذا ظلَّ في الخارج، يمكن أن يستمرَّ في العيش معه، ولكن لو وُضع في زنزانة... أبعد هذه الهواجس عن

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

فكره. يجب أن يبقى مُركِّزًا على ما يعيشه، لا أن يُفكِّر في هذه الأشياء المُزعجة التي تؤلم قلبه كما تؤلم رجليه.

كلما تقدَّم النهار، كانت أعداد المزارعين والمشترين تتزايد في الطُّرق المجاورة. وكانت الشاحنات بعجلاتها المُلطَّخة بالوحل متوقِّفة في الجوار، تفرغ بضاعتها من الدَّواب التي تثغو وتخور، تحت صراخ الرجال المُرتدين لمعاطف البونشو وصفيرهم الحاد. وسط هذا الغليان البشري والحيواني، كان أنخل وباولو يكافحان في أن يجدا طريقًا للسَّير، ولكنهما كانا يُدركان أيضًا أن الحشد كان يحميهما، فكانا يستسلمان له طواعية حتى يتقاذفهما يمينًا ويسارًا مدًّا وجزرًا. لمَّا وصلا بالقرب من الإسطبل، بحث أنخل عن مكان آمن، ثم عاد أدراجه ليأخذ باولو جانبًا، تحت سقيفة أحد المنازل، وقال له: «اذهب واستطلع الأمر، ولتكُنْ حَذرًا.»

سار باولو إلى أن دخل إلى الإسطبل. كانت صور أنخل مُلصقة على العوارض الخشبية. وكان ثلاثة أنفار من الشُّرطة يراقبون الحمار والحصان. إلى جانبهم، تعرَّف الطِّفل على فلَّاح «لابامبا» الذي سلبوه الحصان، وكان هو بدوره ينتظر أمام الإسطبل، لكن لم يكن مُتسلِّق الجبال البلجيكي موجودًا... هل يمكن أن يكون قد بقي يصيح هناك في السُّهول القاحلة، أو أن السِّفارة قد تكون أعادته إلى بلده الذي لا جبال فيه؟

انسحب باولو في هدوء مثل الثُّعبان وعاد إلى السقيفة حيث كان ينتظره أنخل. أصبحا في هذه المدينة التي اختارا أن يبقيا فيها

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

مختبئين دون مطية، ودون مال. كان باولو يراقب وجه أنخل، بدا مُنقبض الملامح، في عينيه يلوح بريق من البرود. وتمتم أنخل قائلًا: «أمامنا فرصة ما داموا يبحثون عنَّا في السُّوق...»

مدَّ باولو إليه يده، ثم قال: «سأفعل ما تريده، لكن أبقني معك!»

أمسك أنخل هذه اليد المُمتدة إليه بلُطف، وأقسم بأنه لن يتخلَّى عنه أبدًا. كان باولو هو الشخص الوحيد في العالم الذي يُقدِّم له أنخل وعودًا، وهو الشخص الوحيد الذي يستعمل في حديثه معه كلمات يصعبُ الالتزامُ بها من مثل: «دائمًا» و«أبدًا». أخذه من جديد إلى الطريق، بين الحشد، في اتِّجاه المنحدر الذي يؤدي إلى هناك، إلى الميناء.

توسطت الشمس السماء الصافية. في يوم السُّوق تُستنفر المدينة بأسرها؛ كانت السيارات تسدُّ كلَّ المنافذ، وعلى الأرصفة كانت الأحصنة والمُترجِّلون يُسرعون معًا، وعلى تخوم الميناء تختلط أصوات النَّوارس بأبواق السيارات.

في الميناء، كان كثير من الصَّيادين قد رسوا بمراكبهم للتَّوِّ، إنه وقت تفريغ الحمولة، وما كان ذلك ليعيق باولو وأنخل. تسلَّلا عبر الأرصفة المزدحمة ما أمكنهم ذلك، ووصلا إلى الميناء السِّياحي، وفي أقصى مكان هناك لمح أنخل ما كان يبحث عنه: «أترى تلك السَّفينة الحمراء الكبيرة؟»

قال باولو: «أجل.»

«إنها أملنا في النَّجاة.»

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

«هل سنركبُها؟»

«كلا، سيكون هناك مُراقبون.»

ودون أن يسعى إلى فهمٍ أكثر، أخذ باولو في الهرولة إلى جانب أنخل الذي كان يتقدَّم إلى هدفه بخُطى عريضة مُتوتِّرة.

كان الصغير يرى السَّفينة المُدرَّعة الحمراء من الخلف وهي تنساب على بياض الجرف. «سـ.فـ.يـ.نـ.ت». لقد نسي لويس أن يقول له كيف تُكتب هذه الكلمة بشكل صحيح، وكان يقول في نفسه إنه قد لا يعرف ذلك أبدًا، فلماذا لا يستطيع الإنسان إكمال ما بدأ؟ في تلك اللحظة بدا له أن أنخل هو الإنسان الوحيد الذي يقدر على أن يُكمل المهمَّة التي بدأها، فقتل أحدهم شكل من أشكال إكمال الفعل، وفي تلك اللحظة، شعر مباشرة بقوة القاتل، وإصراره، وعناده. كان باولو يثق في أنخل، فإذا كان أنخل قد أقسم بأنه لن يتركه أبدًا، فإنه سيفي بعهده، بل إنه قد يتوصَّل إلى شراء الشاة له، ولكنَّ هذا الأمر صعب المنال بسبب صوره المرسومة بالخطِّ الغليظ التي توشِّي أعمدة سوق المواشي كلها.

قُرب السَّفينة الحمراء، كان هناك مُسافرون، وحقائب، وأكداس من الصناديق المعدنية الكبيرة، وكان عُمَّال من شركة الملاحة البحرية يراقبون تذاكر الرُّكوب.

قال له أنخل آمرًا: «انتظرني هنا، لا تتحرَّك.»

وقف باولو بجانب الصناديق دون حِراك. ومن ذلك المكان لم يكن يرى ما يفعله أنخل. كان قلبه يخفق بشدَّة.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

اتَّجه أنخل نحو صفِّ المُسافرين المُنتظِرين. وطبقًا لما تنبَّأ به كانت داليا ولويس موجودَين في ذيل الصَّف، فمنذ اللحظة التي رآهما فيها أمام البنك كان أنخل قد كشف الخدعة.

كانا يُديران له ظهريهما، ويُظهران الهدوء وكأنهما زوجان شابَّان يُسافران في شهر العسل. دسَّ أنخل يده في سُترته. كانت السِّكين هناك، هي دائمًا في المكان نفسه، في جيب السُّترة المُلاصق لصدره. وضع نصل السِّكين بين كتفي لويس.

همس أنخل في أذنه: «ولا كلمة، ستأتي معي، وداليا كذلك، وإلا قتلتُك!»

المباغتة، والحذر، هما ما اعتاد عليهما أنخل. وقد تعوَّد أيضًا على ردود أفعال ضحاياه فتغدو أجسادهم طيِّعة، يُغطِّيها العرق ليفعل بها ما يشاء بعد ذلك.

غادرت داليا ولويس صفَّ الانتظار. قادهما أنخل إلى الصناديق المعدنية الكبيرة، حيث كان باولو ينتظره هناك في هدوء، وحالما احتمى بها، ضغط أكثر على مقبض السِّكين فتبدَّلت ملامح وجه لويس من الألم، وأمسك القاتل بيده الأخرى داليا من قفاها، وشدَّ شعرها الكثيف بأصابع مُتوتِّرة.

قال أنخل: «اِحك إذن لباولو، سيُفاجأ كثيرًا بمعرفة ما كنت بصدد فِعله.»

نظر باولو في عينيه، ولم يكن بحاجة إلى الكلام حتى يفهم، ولكنه سأله لمزيد من التأكُّد: «هل كنت ستقوم برحلة حول العالم مع داليا؟»

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

اكتفى لويس بهزِّ رأسه مُوافقًا وهو يرتعد مُتقطِّع الأنفاس.

قال باولو مُتعجِّبًا: «لكن... ماذا عن الخضراوات الغريبة، والماء الجالب للأمراض، والحرارة التي تؤلم الرَّأس؟»

ردَّ لويس، وعيناه مملوءتان أسى: «يجب أن نُواجه مخاوفنا.»

ما كان يستطيع أن يشرح لهذا الطِّفل الصغير، الجاهل، كيف أنه وجد أخيرًا الدَّافع ليتخلَّص من طفولته هو، وأنه إذا لم يُغادر الآن، فلن يُصبح رجلًا أبدًا. هكذا جرت الأمور: قاسية وضرورية.

حوَّل باولو نظره إلى داليا. كان يودُّ أن يعرف كيف أمكن لها أن تجعل لويس يُقرِّر المُغادرة أخيرًا، وأن يعرف الحيلة التي كانت قد احتالتها، ولكنه أحجم عن ذلك، مُرجِّحًا أن تكون وراء ذلك أسرار، هي بعض من أسرار الكبار.

ضغط أنخل أكثر فمزَّقت الشَّفرة قميص لويس، فأطلق صرخة مكتومة.

قال أنخل مُتابعًا كلامه: «نسيت أن تُعطي باولو المال ليشتري الخرفان، هذا ليس لطيفًا منك!»

قال باولو مُدقِّقًا: «الخرفان والشاة.»

أجهشت داليا بالبكاء. فرجَّها أنخل وقال لها: «أنت ترسمين جيِّدًا، ولكنَّني أُفضِّل رسومات المناظر الطَّبيعية.»

قالت داليا مُتوسِّلة: «لا تقتلنا!»

«إذا أعطانا لويس نصف المال الذي معه، سأترككما تُبحران.»

كان أنخل قد قال ما عنده، ولن يتفاوض أكثر. أما لويس فكان

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

يشعر بالخوف، فضلًا على الخجل الذي يعصر قلبه. كانت نظرة باولو الساذجة المليئة بالأمل تؤلمه أكثر ممَّا تؤلمه شفرة السِّكين بين كتفيه. سمح له أنخل أن يلتقط أنفاسه، ثم فتح جرابه. كان فيه رزمة كبيرة من الأوراق النَّقدية. هي كلُّ ميراثه. أخذ منها النِّصف ومدَّها إلى باولو دون أن ينبس بكلمة.

قال الطِّفل: «شُكرًا.»

في اللحظة نفسها، أعلن بوقُ السَّفينة الحمراء الكبيرة نهاية الرُّسُو.

قال أنخل وهو يدسُّ السِّكين في جيبه: «أسرع! ستُفوِّت على نفسك الرِّحلة حول العالم!»

جمع لويس أشياءه، وأمسكت داليا بذراعه، وأسرع الاثنان هاربَين نحو المعبر. لمحهما باولو وهما يهرولان فوقه، ثم اختفيا في جوف السَّفينة، بين يديه الصغيرتين، كانت الأوراق النَّقدية تهتزُّ اهتزاز أوراق شجر الصَّفصاف.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

Twitter: @ketab_n

www.kutub-pdf.net

١٨

كان باولو يقول في نفسه: «كم هي صعبة هذه الحياة! وكم أنَّ كلَّ شيء فيها مُعقَّد، ومُعذَّب، وجاف جفاف أشجار «لابامبا» الميتة!»

كان يتحسَّس بأطراف أصابعه الحلوى الصَّفراء وهو يمشي، وبطريقة أو بأخرى يمكن أن نعتبر أنها قد جلبت له الحظَّ السَّعيد بالفعل بما أنه قد غادر «بونتا أريناس» مع أنخل حُرَّيْن ثريَّيْن... لكن رغم ذلك فهو يشك في قدرات الحلوى، فلا يجب أن تكون السعادة دائمًا شبيهة بفرس في ليلة باردة تقف على شفا جرف يتفتَّت ويكون فيها المرء مُهدَّدًا في كلِّ لحظة بالسُّقوط، إنما السعادة، لو وجدت، يجب أن تكون شبيهة ببساط موكيت البنك، وجهاز التدفئة، أو الشَّاة ذات الصُّوف الكثيف. يجب أن تكون أبًا، أمًّا تُجِيد ضمَّ ابنها إلى حضنها، أو أصدقاء لا يمكن أن يغادروا في صمت في رحلة حول العالم، أو نساء يكتفين برسم موانئ الصَّيد ولا يُقدِّمن للشُّرطة صورًا تقريبية...

ولكن يجب على باولو أن يهنأ الآن بما لديه: الأوراق النَّقدية المسروقة وأنخل، أنخل وسكِّينه.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

قال باولو: «لقد جعت.»

«أنا أيضًا.»

«أشعر بألم في رِجليَّ.»

«أتريد أن أحملك؟»

«لن تتحمَّل ذلك لوقت طويل، فأنا ثقيل.»

«أنت عندي خفيف.»

توقَّف أنخل، حمل باولو ومرَّره فوق رأسه ليُجلسه على كتفيه. كانت ليلة جلية الصفاء. وكان البدر يُرافقهما، وكأنه مصباح كهربائي. في أسفل الجرف، كانت الأمواج تتكسَّر على الصُّخور دون هوادة، مما يعني أنهما قد تجاوزا كثيرًا المكان الذي أراد باولو أن يقفز منه.

قال باولو: «إنني أتساءل أيمكن أن يكون مُتسلِّق الجبال قد مات؟»

ابتسم أنخل ابتسامة لم يلمحها باولو، ولكنها تناهت إلى سمعه. لم يمرَّ وقت طويل منذ أن التقوا الرَّجل البلجيكي، ورغم ذلك، أحسَّا بأنهما يسترجعان فترة بعيدة في الزَّمان، وكأنها من زمن ما قبل الطُّوفان.

«ولويس وداليا...»

«اتركهما حيث هما، فلن نراهما مرَّة أخرى أبدًا وهذا أفضل.»

كان أنخل مُنتبهًا انتباهًا مُضاعفًا إلى أحجار الطريق وإلى حفرها. كان الطِّفل يتمايل برفق على كتفيه، وكانا يُشكِّلان صورة مخلوق غريب ذي رأسين.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

سأل باولو فجأة: «هل أحببت امرأة من قبل؟»

«أعتقد... لستُ أدري.»

«هل هو مؤلم؟»

«في البداية لا، ولكن بعد ذلك نعم.»

«ولكن هل يمكن أن يؤلم الآخرين؟»

أطلق أنخل زفرة شديدة من منخريه، مثل حصان. كان يُفضِّل أن يسير طول الليل مُتحمِّلًا عبأه، لكنه إذا أراد أن يجيب عن هذه الأسئلة المُحرجة فعليه أن يُفكِّر جيِّدًا حتى يتجنَّب قول كلام لا معنى له.

«أنت تسأل عن هذا لأن لويس جرحك، أليس كذلك؟»

«شيئًا كهذا.»

أعلن أنخل قائلًا: «لقد خدعنا.»

«وأنت، ألن تخدعني أيضًا؟»

«أبدًا، باولو. أبدًا.»

أبقى باولو لنفسه آلاف الأسئلة الأخرى التي تقضُّ مضجعه، فقد كان يُدرك بداهةً أن عليه أن يعيش بعْدُ أكثرَ قَبْلَ أن يقع على إجابات عنها.

واصلا طريقهما في صمت، وللحظة أحسَّ أنخل أن باولو قد نام وأنه يكاد أن يسقط. ولم يكن هناك من حولهما مكان يمكن اللُّجوء إليه غير الطريق والحجارة والجرف والسَّهل. يا لها من

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

مفارقة، فهما يملكان مالًا وفيرًا ولا يستطيعان أن يوفِّرا لنفسيهما شيئًا من الرَّاحة والدِّفء!

أنزل أنخل الصَّبي عن كتفيه وأخذه بين ذراعيه، فاندسَّ رأسه في حضنه، وارتخى جسده، واستسلم للنُّعاس.

سار أنخل طول الليل بعينين مُتيقِّظتين، وعضلات قد تصلَّبت لفرط ما بذله من جهد. ومع خيوط الفجر الأولى، وصل إلى أطلال زريبة، فدخلها، ووضع باولو على كومة تبن، وأسند ظهره إلى أسفل حائط قد تهدَّم نصفه ثم تنهَّد.

لمَّا استيقظا كانت الشمس في كبد السماء، ويمكن استنتاج ذلك على الأقلِّ من خلال هالتها الشاحبة المنبعثة من وراء كُتل السُّحب. تراجعت قوة الرِّيح، كان الطَّقس لطيفًا، ودون أن ينبسا بكلمة استأنف الرَّجل والصَّبي السَّير، وكلُّ واحد منهما مُنشغل بأفكار قاتمة، مُبتعدَين عن الساحل والجرف مُتوغِّلَين في اليابسة.

بعد ساعتين، لمحا جهة الشَّمال الشَّرقي أولى أشجار غابة، وخلفها بدت قمم الجبال بعيدة، مُتفرقة، مُعلَّقة في السماء، فوق السُّحب. يتصاعد من هذه الغابة بأشجارها ذات الجذوع الرَّمادية المائلة المُشوَّشة تحت وطأة الرِّياح إحساس بالموت أكثر من الحياة، إحساس كأنها مقبرة.

في وضح النهار، لا تُخيف المقابر حتى الأطفال، فهي أشبه بالحدائق، يُسمح بالتنزُّه فيها بين القبور المعشوشبة، ويأخذ الافتتان الذي يُحَسُّ عند قراءة أسماء الأشخاص المجهولين

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

المدفونين الخيالَ إلى عوالم فريدة. وبما أن هذه الغابة بدت جامدة كالصخر لم يشعر باولو بالخوف لمَّا دخلها، على عكس تلك التي كان يخشاها كلما خرج يصطاد ليُطعم ثعلبه.

كان أنخل يتقدَّمه، مُشيرًا عليه بأن يرفع قدميه عاليًا جدًّا كي لا يتعثَّر بالجذور والأغصان التي سقطت على الأرض. في الوقت نفسه، كان يترصَّد الأصوات، على جحر قارض، أو خُلد، أو أيِّ حيوان صغير آخر يصلح أن يكون طريدة، ولكنَّ هذه الأحراش المُمتدة الجافة، لا يمكن أن تكون فيها حياة، وتظلُّ سماؤها البيضاء بدورها مُنقشعة بعناد.

غير أنه، كلما توغَّلا في الغابة، لاحظا وجود تغييرات. على الأرض، عوَّض نباتُ الخِنْشار القصير الطَّحالبَ، ثم بدا أكثر طولًا، وامتدادًا. نظرا إلى الأعلى، كانت القُبة التي تُشكِّلها الأشجار تتكثَّف شيئًا فشيئًا فتحبس الرُّطوبة تحت غطائها غير المنتظم. خَفَتَ النُّور، فاتَّجها نحو سفوح الجبال. أسرع باولو إلى اللحاق بأنخل ودسَّ يده الصغيرة في يد القاتل ليُشجِّع نفسه، كانت الغابة تبدو أمامه مباشرة، قاتمة باعثة على الحيرة. فكَّر الصَّبي فيما قاله له لويس عن المخاوف التي يجب عليه أن يواجهها، فإذا كُتب لباولو أن يخرج حيًّا من هذه الغابة، أيمكن أن يصبح رجلًا؟

همس أنخل فجأة: «أتسمع؟»

أنصت باولو: «نعم.»

صدى بعيد لضربات فأس على جذع شجرة، صمت، أزيز

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

محرِّك، صمت من جديد ثم ضربات الفأس من جديد، إنه حطَّاب يعمل مُختفيًا في أعماق الغابة، بعثت هذه الأصوات البشرية في باولو شيئًا من الطُّمأنينة. سلَّم نفسه لأنخل كي يقوده، تداعب وجهه الأعشاب، مُحدِّقًا ليخترق الغبش. وكانت بعض الطُّيور تحلق عاليًا. ويكاد وجه السماء يُحجب تقريبًا.

وصلا أخيرًا إلى المكان الذي يعمل فيه الحطَّاب، كانت هناك شجرة مقطوعة للتَّوِّ تسدُّ عليهما الطريق، وجدا الفأس، وآلة قطع الأشجار، وسُترة مُعلَّقة على غصن قريب، إلى جانب قارورة ماء وبعض الزَّاد، نظرا إليها بشغف دون أن يجرُؤا على أخذها، لم يكن الحطَّاب هناك.

سأل باولو: «ماذا سنفعل؟»

ردَّ أنخل مُقترحًا: «نجلس.»

جلسا مُتلاصقين على جذع شجرة. كان باولو مُجهدًا حتى إن خوفه قد تراجع. توسَّد رُكبتيْ أنخل، وعيناه مُتَّجهتان نحو قُبة الأشجار، بدا له حينئذ أنه لا يوجد مكان في الأرض أفضل من هذا للاختباء، فلا يمكن لأحد أن يعثر عليهما هنا، لا شرطة «بونتا أريناس»، ولا الفلاح، ولا مُتسلِّق الجبال. وكأنهما كانا في حفرة سحيقة، كان ظهره يستشعر دفء جسم أنخل، وتحت ساقيه أحسَّ بسُمك الخشب الذي يشده إلى شيء عميق جدًّا، حيٍّ، مدفون تحت الأرض، قويٍّ، وغير قابل للقطع.

سمع أنخل الأوراق تهتزُّ، فلم يُحرِّك ساكنًا. ولمَّا ظهر الحطَّاب

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

من بين الأعشاب كاد أن يصرخ، ولكنَّ أنخل وضع سبَّابته على شفتيه مُشيرًا عليه بألَّا يُوقظ الصَّبي. تمالك الحطَّاب نفسه من المفاجأة، ثم اقترب منهما. كان رجلًا مُسنًّا، كست جلده التجاعيد والبُثور، وكان شعر لحيته يرسم بحيرة من الجليد حول فمه، وكانت عيناه زرقاوين زُرقة ورد تفتح في أعلى وجهه، فكأنه لخَّص فصلي هذا المكان، شتاءه وصيفه المتداخلَين.

قال أنخل: «لقد مشينا كثيرًا.»

«أتريدان ماء؟»

جلب الرَّجل قارورة الماء ومدَّها إلى أنخل.

«أُدعى «ريكاردو مورجا»، هل لديكما مأوى لهذه الليلة؟»

هزَّ أنخل رأسه بالنَّفي، وهو يعلم مُسبقًا أنه سيجد في منزل هذا الحطَّاب ملاذًا، وسيكون ذلك، دون أن يضطرَّ حتى إلى قتله.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

Twitter: @ketab_n

www.kutub-pdf.net

١٩

يبلغ ريكاردو مورجا خمسًا وسبعين سنة من العُمر، وكان يعيش وحيدًا على أطراف الغابة في الشَّمال. شيَّد منزله بنفسه منذ أكثر من خمسين عامًا في الفترة التي كانت تستعد فيها زوجته لتضع بِكرها. كان حطَّابًا ويمتهن النجارة كذلك، وقد اختار هذا المكان المُنعزل ليستطيع العمل دون أن يبتعد كثيرًا عن عائلته.

«رُزقنا بثلاثة أطفال، صَبيَّين وبنت، وكنت أوسِّع المنزل مع كل ولادة. أما الآن فهم ليسوا هنا، وكما ستريان ستجدان مكانًا لكما.»

كان اليوم قد انقضى عندما غادروا الغابة. تبع باولو الرَّجلين مُنقادًا، فقد آلمته معدته لشدة جوعه، وأحس بحموضة الرِّيق في فمه.

فتح ريكاردو باب منزله وتراجع ليترك ضيفيه يَدخُلانه، ففاجأهما الدفء ورفاهة المكان: زرابيُّ، وأرائك مخملية، ومقعد يتوسط طاولتين مُستديرتين صغيرتين، وستائر للنوافذ وتحف... وما أثار دهشتهما أكثر وجود مكتبة ضخمة تراصَّت فيها الكتب حتى كادت تسقط رفوفها، فلم يكن هذا ما يمكن أن يتخيَّلا وجوده في منزل شيخ حطَّاب وحيد. أشعل ريكاردو مصباحي غاز وعددًا من

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الشموع الصغيرة وضعها في صف واحد فوق الطاولة، وقال وهو يبتسم: «كانت زوجتي هولندية الأصل، وهي من رتَّبت داخل المنزل هكذا، وأنا أعتقد أنني أحفظ ذكراها بإيقاد الشموع.»

توارى في غرفة مُجاورة، ثم أطلَّ منها برغيف خبز وأكواب وطبق يحوي بقية فخذ خروف، كانت وليمة حقيقية! ودون أن يلفظ كلمة انقضَّ باولو على الأكل.

تورَّد خدَّاه، واستعادت عيناه ألقهما، وهزَّت كامل جسمه رعشة مُتعة.

جلس ريكاردو على المقعد مُريحًا مرفقيه على جنبيه الوثيرين، وكان ينظر إلى ضيفيه بفضول، لكنه لم يطرح عليهما أي سؤال؛ فقد تعلَّم أن يصمت، وأن يقبل مفاجآت الحياة كما هي. خرج رجل وصَبي من الغابة مُنهكَين، فأين الغرابة في ذلك؟ لا بدَّ أن لهما أسبابًا وجيهة ليصلا هذا المكان.

قال لأنخل: «أحبُّ أن أحتسي شرابًا معكما فلديَّ في المخزن بعض القوارير النادرة التي لا أسمح لنفسي بفتحها لشربها بمُفردي.»

ولمَّا نهض ليخرج من الغرفة ابتسم باولو ثم تجشَّأ، وقال: «شكرًا» من أعماق قلبه. انحنى ريكاردو قليلًا وأخفى رغبته في الضَّحك وهو يُغلق الباب خلفه.

همس له أنخل مُستاءً: «كان عليك أن تمسك نفسك، فلسنا مع همج هنا!»

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

انبهر أنخل بالرجل الهَرِم، وبعالمه البسيط الوثير، فقد أربك حسنُ ضيافته القاتل الذي لم يُضمر لأول مرَّة العداوة ومنذ زمن طويل لشخص واجهه.

لم يعبأ باولو بالتَّأنيب، وتكوَّر كالقط وسط وسائد الأريكة حتى بلغت رُكبتاه ذقنه، فأحسَّ بقطعة الحلوى في جيبه. مرَّة أخرى فعلت هذه التميمة فِعلها: إذ لا يمكن تفسير التقائهما بهذا الرجل الطيِّب بغير مفعول السحر.

رجع ريكاردو وصبَّ في الأكواب شرابًا لونه أقرب إلى السَّواد، وقال: «اشتريت هذه القارورة منذ سنوات من عند تاجر من «فالباريزو».»

فقال باولو مُندهشًا: «نحن أيضًا نعرف رجلًا عاش في «فالباريزو».»

ابتسم ريكاردو ورفع كأسه واتَّخذ الشراب في ضوء الشُّموع المُتراقصة لونًا أرجوانيًّا عميقًا ناعمًا: «فلْنشرب نخب «فالباريزو».»

فكرر أنخل: «نخب «فالباريزو».»

تتالت الكؤوس والكلمات... وشيئًا فشيئًا، غلب النومُ باولو، فأحسَّ كأنه على سفينة وسط أمواج مُتلاطمة. غير أنه لن يصيبه مكروه ما دام على متنها.

شرح ريكاردو لأنخل أن الشجرة المقطوعة في الغابة كانت الأخيرة، الأخيرة في كلِّ شيء قبل تقاعده النِّهائي؛ فمن الغد سيخرج لتقطيعها ثم ينقلها قطعة قطعة إلى هنا.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

«أنا أبيع أخشابي إلى تُجَّار يأتون بشاحناتهم ويُحمِّلونها ثم يغادرون. إنها الطَّلبية الأخيرة التي أوفرها.»

فقال أنخل رافعًا كأسه: «نخب طلبيَّتك الأخيرة.»

فأضاف ريكاردو: «ونخب الخشب! فقد عشت بفضل الخشب؛ أكلت، واتَّخذت منه مأوى من المطر وتدفَّأت به... ثم قرأت كلَّ هذه الكتب التي صُنعت من ألياف الخشب.»

كان صوت ريكاردو مورجا دافئًا ومُريحًا. فهو يتحدَّث برفق مَن لا حاجة له في إثبات شيء، وتبدو كلُّ كلماته مُختزنة أسرارًا. تنهَّد قائلًا وهو يدير الشراب في كأسه: «أحبُّ التحوُّلات، الخشب الذي يُصبح كُتبًا، والشِّتاء الذي يصير ربيعًا، والعنب الذي يُصبح شرابًا.»

واستدار إلى باولو وقال وهو يهزُّ رأسه: «والطِّفل الذي يصبح رجلًا.»

أطلق باولو زفرة وقد كاد يغلبه النُّعاس: «هذا صحيح، فقد عبرت الغابة ولم أعد أخشاها الآن.»

فواصل الشَّيخ الحطَّاب: «هناك تحوُّلات خفية جدًّا، كتلك التي تطال أرواحنا فلا نراها.»

فجأة تحرَّك أنخل في مقعده قلقًا، وقال خجلًا: «أتريد القول... أتريد القول إنه يمكن للنَّاس تغيير طبائعهم؟»

فرد ريكاردو: «أعتقد ذلك، وماذا عنك؟»

تمتم أنخل: «لا أعرف.»

نهض ريكاردو واتَّجه إلى مكتبته ففتح دُرجًا في أسفلها،

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

وأخرج منه علبة صغيرة نزع عنها غطاءها بإبهاميه، ودون أن ينطق بكلمة لفَّ سيجارة من التَّبغ الذي كان بداخلها، وانحنى على لهب الشمعة قائلًا: «تُنتج الغابة ملايين الأنواع من النباتات، فنحن نكاد لا نعرف شيئًا عنها.»

ونفث من منخريه دخانًا كثيفًا أزرق ذا رائحة نفَّاذة.

«حوَّلتُ أحد هذه النباتات إلى تَبغ خاص، وهي واحدة من تحوُّلاتها المُمكنة ومن الأسرار التي تحيط بنا.»

دعا أنخل للتَّدخين معه، فأطبق الصمت على المنزل ونام باولو شيئًا فشيئًا يغمره دخان النبتة الغريبة الأزرق. فأضاف ريكاردو مورجا: «الشُّعراء كذلك يحذقون تحويل الأشياء، فهم يتأملون العالم ثم يمتصونه كالشَّراب، وعندما يتكلمون تخرج الأشياء على غير صورتها الأولى، وكأنها نوع من السحر، فالتزمتُ بأن أنظر إلى العالم يوميًّا بهذه الأعين، وكان ذلك ما يبقيني على قيد الحياة.»

تمتم باولو وهو بين اليقظة والمنام: «أنا أيضًا أعرف القراءة...»

فوعده ريكاردو قائلًا: «سأهبك كُتبي.»

رأى باولو من بين جفنيه الثَّقيلين العدد الهائل للكُتب المتراصة في المكتبة. كان هناك الكثير منها! فهل تكفي حياة كاملة لقراءة هذه الملايين من الكلمات؟ فهو لا يكاد يُصدِّق أن هذا الرَّجل قد قرأ كل هذه الكتب رغم تقدُّمه في السن. فإذا فعل ذلك فهو إذن من السَّحرة، وهذا هو الأقرب إلى الممكن.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

Twitter: @ketab_n

www.kutub-pdf.net

٢٠

فعل شراب تاجر «فالباريزو» ودُخان التَّبغ الأزرق فعلهما، وقد تحالفا مع تعب أيامٍ من المشي ورفاهة السَّرير الهولندي، إذ نام أنخل كالأموات، واستيقظ وكأنه وُلِد من جديد برأس ثقيل وسط نعومة وسادة الرِّيش، وأطراف مُرتخية، واستمع لحظاتٍ طويلة لإيقاع قلبه الهادئ وقد مرَّت عليه سنوات لم يحسَّ بنفسه شابًّا فتيًّا.

كان ريكاردو قد منحه غرفة نجله، وعادت حجرة ابنته المجاورة إلى باولو، وبعد أن استغرق في النَّوم على الأريكة لم يتفطَّن الصَّبي حتى إلى أنخل الذي حمله إلى السَّرير ذي الملاءات البيضاء النَّظيفة والمُعطَّرة بعطر لطيف، وكأنه هُيِّئ لاحتضان نوم أحد الأمراء.

تمطَّى أنخل، وكان ضوء النهار يلاعب طيَّات السَّتائر المُسدلة، وتناهت إلى سمعه أصوات تتردَّد في الخارج، فنهض ولبس ثيابه على عجل وغادر الغرفة. كانت أرجاء المنزل تعبق برائحة الخبز والقهوة. هل يستحقُّ وهو القاتل الصُّعلوك أن يمرَّ ولو للحظة

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

بهذا المكان الذي تكتنفه الفتنة؟ ألن يكدِّر صفوه؟ حاول أنخل ألَّا يتفطَّن إليه أحد وهو يعبر المنزل في خفَّة النَّسائم.

وقف على العتبة مأخوذًا.

كان باولو يضحك ملء شدقيه برفقة ثلاثة صِبية في مثل سنِّه وهو يرقص على العُشب النَّدي الذي يتلألأ تحت أشعة الشمس. وهناك بعيدًا قُرب مستودع الحطب كان ريكاردو ينعم بالشمس ويداه في جيبه، بعد أن تخلَّى عن جرَّاره لحظات يراقبه. مسح أنخل على وجهه بيده وتقدَّم نحو حلقة الأطفال. مَن هم؟ من أين خرجوا؟ كيف؟ وبأي وسيلة نقـ..

قال ريكاردو وقد وضع فجأة يد الحطَّاب على ذراع أنخل: «لا تُزعجهم، هم يستمتعون باللَّهو.»

حدَّق أنخل في بؤبؤي عيني الرَّجل يبحث فيهما عن أجوبة لأسئلته، فقال له ريكاردو مُقترحًا: «تعالَ، ينتظرك إفطار في الدَّاخل.»

تبعه أنخل إلى داخل المنزل دون أن يُبدي مقاومة، وقد تعالت وراء ظهره ضحكات الأطفال النَّقية المُبتهجة...

في قاعة الجلوس ملأ ريكاردو فنجانين من الخزف المطليِّ قهوةً كان قد وضعهما على المائدة قُرب الأريكة، ثم مدَّ أحدَهما إلى أنخل الذي فغر فاه مذهولًا وعجز عن أن ينبس ببنت شفة، فنصحه ريكاردو قائلًا: «لا تحاول، فقد علَّمتني الحياة أن أقبل السعادة حتى غير المعقول منها ولا المقبول، فاقبَل السعادة واصمتْ، فلا

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

جدوى ممَّا تطرحه على نفسك من أسئلة... فقد رأيتَهم كلَّهم كما رأيتُهم أنا معك، أليس كذلك؟ وتستطيع أن تشهد بأنهم حقيقةٌ كما ابنك الذي أمسك أيديَهم ليتحلَّقوا، وهذا يكفيني، فهم يأتون ثلاثتُهم ليروني كلَّ صباح منذ قرابة الأربعين سنةً!»

احتسى أنخل جرعة من القهوة، أراد أن يعترض، أن يصرخ بأن الأمر مُستحيل؛ فالأموات قد ماتوا! لكنه لم يقل شيئًا.

قال ريكاردو مُستفهمًا: «كلَّ صباح يمتلئ قلبي غبطة منذ أربعين سنة. أتفهم ذلك يا سيِّدي؟»

فهزَّ أنخل رأسه.

«وكَذِي قَبْل يزورونني كلَّ صباح ليلقوا عليَّ التَّحية، ويلعبوا تحت نوافذي قُبيل خروجي إلى الغابة لأقتطع الحطب. ولولا زياراتهم ما كانت لي الشَّجاعة للمواصلة أو العمل أو العيش. حتى زوجتي تعود أحيانًا في المساء، ويبدو أن زياراتها تتزامن مع جنْي التَّبغ الأزرق، إذ أراها تدخل مُعتمرة قلنسوتها القُطنية. يا لها من لحظات رائعة!»

وضع ريكاردو على المائدة سلَّةَ الخُبز الفضِّية التي احتوت قطعًا محمَّصة أخذ منها أنخل واحدة بين أصابعه في رفق.

وواصل ريكاردو حديثه قائلًا: «لم تكن «خُوانَا» إلا بنت ثمانٍ، واحتفل «دِميتري» بعيد ميلاده العاشر، أمَّا نجلي «سفان» الذي بِت في غرفته فلم يُتمَّ بعدُ الثالثة عشرة، ففي يوم من ماضي الزَّمان غادروا برفقة أُمِّهم نحو الشَّمال، إذ كان أقاربُ لنا يُقيمون في نهاية

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

مَوسِم الحصاد حفلًا فخمًا نُجرِّد خلاله القمح من السَّنابل ونشرب ونأكل ونُغنِّي ونرقص... وكان لي في الغابة عمل أُنجزه لألتحق بهم فيما بعد. أذكر جيدًا أنهم حين غادروا كانوا يُرسلون القبلات إليَّ عن بُعد، وكانت زوجتي تلوِّح بالسَّوط فوق رأس الفرس التي تجرُّ العربة: «إلى اللِّقاء يا أبي! التحق بنا سريعًا!».»

استرجع أنفاسه فرأى أنخل المُسمَّر على الأريكة عَيْنَي الشَّيخ الحطَّاب الزَّرقاوين تخضلَّان بالدُّموع.

«لم يبلغوا قَطُّ الضَّيعة التي يُقام فيها الحفل، ماذا حصل؟ لا أعرف ذلك على وجه الدِّقة. يبدو أنهم التقوا في الطريق أحدًا، شخصًا قد لا أعرف اسمه أبدًا فسلبهم، ثم قتل أربعتهم. هكذا. وأنا مَن وجدهم في اليوم التالي لمَّا أخذت طريقي إلى الحفل مُستحثًّا حصاني ليُسرع أكثر!»

خيَّم الصَّمت، وارتجف أنخل، وكادت القهوة تنسكب من فنجان الخزف الذي اجتهد ليضعه على المائدة. فتمتم ريكاردو وهو ينهض قائلًا: «أستسمحك الآن...»

اتَّجه إلى الباب، وفي طريقه أخذ قُبَّعته المُعلَّقة إلى الحائط وغطَّى بها رأسه، وقال: «يجب أن أهتمَّ بآخر شجرة لي.»

ظلَّ أنخل مُسمَّرًا للحظات طويلة، وقد اخترقته أعنف الأفكار وأشدُّها ألمًا وغرابة على القاتل، وبعد زمن لم يتحمَّل فيه ذلك نهض وخرج بدوره.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

لم يكن أبناء ريكاردو هناك، فقد اختفوا في الوقت نفسه الذي كان فيه الأب يُشغِّل جرَّاره، أمَّا باولو الذي تُرك فجأة فظلَّ يدور في حلقة، خافضًا رأسه، مُثيرًا الغبار قُرب مستودع الحطب، فاقترب منه أنخل مُترفِّقًا مُتوجِّسًا، ألن يختفي باولو أيضًا؟ ألن يتبخَّر أمام عينيه؟ ألن يكون بدوره ضحية القوى الخارقة لهذا المكان؟ في هذه اللحظة فهمَ أنخل جيدًا معنى كلمة «سحر». تبرَّم الصَّبي وهو يرى أنخل قادمًا وقال: «عاد أصدقائي إلى منزلهم. هذا ليس عَدلًا! لماذا لم يبقوا معي؟ كنت أستمتع معهم!»

جلس أنخل القُرْفُصاء، وأخذ الصَّبي على رُكبتيه. أحسَّ جلدَه الدَّافئ الرَّطب من التَّعرُّق وحقيقته، واستدارة ذراعيه... إي نعم! يبدو باولو أقلَّ نحافة من ذي قبل. وهمس قائلًا: «سيعود أصدقاؤك صباحَ الغد!»

«أكيد؟»

«أكيد!»

ابتسم باولو: «إذن سنبقى قليلًا في منزل ريكاردو؟»

«قليلًا. أعتقد أنه بحاجة إلينا هذا اليوم.»

«في الغابة؟»

«أجل. يجب أن نساعده في قطع شجرته الأخيرة ونقلها إلى هنا. هل أنت موافق؟»

قفز باولو من على رُكبتي أنخل نَشِطًا، وركض إلى المنزل ثم

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

عاد بعد ذلك بقطعة خبز طويلة مطلية بالمربَّى وقال بكلِّ جدٍّ: «يجب أن أستردَّ قواي لأقطع الأشجار.»

وهكذا... أخذا طريقهما إلى الغابة، كان الصَّبي يقفز مُبتهجًا مُتقدِّمًا الرَّجل الذي أصبح فريسة لعاصفة داخلية انتزعت منه دُموعًا خفية.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

٢١

سخَّر أنخل كلَّ قُوَّته وطاقته ونشاطه لخدمة ريكاردو وآخر شجرة، وقضى اليوم يذرع طول الجذع المُمدَّد يُشذِّب الأغصان الكبيرة بآلة قطع الخشب، أمَّا الصغيرة منها فتعهَّدها بالفأس، كان يقفز ويجذب ويقتلع ويضرب ويتعرَّق ويتعب ويبتسم.

جلس الشَّيخ الحطَّاب ريكاردو إلى جانب باولو على ما بقي في الأرض من جذع الشجرة وسأله مُمازحًا: «ما الذي ترى أن والدك يبغي أن يُسدِّده؟»

وكان باولو ينظر إلى أنخل وهو يكدُّ منذ البداية، مُنتظرًا في هدوء أن يُؤْذَن له بجمع الأغصان الصغيرة في حزم، فاكتفى بقول الحقيقة: «يريد أن يُكفِّر عمَّا فعله من شرٍّ!»

فردَّ عليه ريكاردو: «لا أعتقد أن أنخل يستطيع أن يأتيَ شرًّا.»

فتنهَّد باولو قائلًا: «بل نعم.»

والتفت إلى الحطَّاب مُبتسمًا وقد راقه أنه أدهش شيخًا مُسنًّا قرأ كمًّا هائلًا من الكتب وقال: «قتل أنخل أُناسًا، لكن، اسكتْ... ولا تقلْ له إنك تعلم ذلك، وإلا غضب منِّي!»

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

وعد ريكاردو باولو بذلك محتارًا، ثم تطلَّع إلى أنخل من بعيد دون أن يُصدِّق تمامًا ما سمعه للتَّوِّ، هل يسخر الصَّبي منه؟ هل هو أبله؟ وإذا ما كان صادقًا فهل ستُصبح الفأس وآلة قطع الخشب وهذه الأدوات خطيرة في يده؟ لا، ففي الحقيقة لم يقبل ريكاردو تصديق أن يكون أنخل سفَّاحًا، فمنذ موت عائلته ظنَّ أنه قد اكتسب حسًّا خاصًّا يُمكِّنه من استشعار وجود الخطر، وهو يرى أنه يستطيع أن يتكهَّن من الوهلة الأولى النَّوايا الخبيثة لأيِّ عابر سبيل. وهكذا، فقد طرد أحيانًا من حول ضيعته جوَّابي آفاق، أو تجَّارًا ذوي أعين ماكرة لمُجرَّد رؤية طريقة مشيهم أو ركوبهم الحصان، وذلك قبل أن يفتحوا أفواههم، إذن.. كان سيشعر بالأمر إذا هو آوى سفَّاحًا في منزله!

رغم ذلك نهض وعاد حَذِرًا إلى جانب الشجرة. امتطى أنخل الجذع وأخذ يُقطِّعه، فتناثرت من حوله النِّشارة كأسراب نحل مذعورة، ولمَّا أحسَّ حضور ريكاردو قطع عمله للحظة وأسكت مُحرِّك قاطعة الخشب، فقال له الشَّيخ: «يبدو أنك قد تعبت، تعالَ واشرب قليلًا من الماء وكُلْ ما تيسَّر.»

أومأ أنخل برأسه وقال: «لم أتعب.»

«سيكون اليوم طويلًا.»

فأكَّد أنخل قائلًا: «تمرُّ أيام العمل أسرع ممَّا نظنُّ.»

فتابع ريكاردو قوله: «أنت ماهر، هل عملت في الغابة أو أنا مُخطئ؟»

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

«اشتغلت قليلًا هنا وهناك.»

«والصغير؟ هل يتبعك هكذا على غير هدًى؟»

«أجل. فليس له من أحد غيري!»

أحسَّ ريكاردو هذه المرَّة برغبة جامحة في أن يعرف كلَّ شيء عن الرَّجل وابنه، وهو الذي لم يتعوَّد قَطُّ أن يطرح أسئلة شخصية، إذ كان يتبنَّى مبدأ احترام أسرار الغير، فتدافعت الأسئلة في فمه مُحرقة لسانَه، لكنَّ أنخل أعاد وضع نظَّارات الوقاية على عينيه، وشغَّل آلة قطع الخشب من جديد، مُنهيًا بذلك المحادثة بينهما.

وهكذا انقضى اليوم بين ظلال أوراق الأشجار وضجيج المُحرِّك. وكان باولو يطوف بالجذع الكبير المُقطَّع جامعًا الأغصان الصغيرة ثم يعود قرب بقية الشجرة المُتجذِّرة في الأرض مُحمَّلًا بها، مجتهدًا في فرزها حسب أحجامها قبل ربطها في حِزَم، ثم رفعها في زَهو قائلًا لريكاردو: «سيكون هذا ذخيرة كافية للمدفأة.»

فابتسم الشَّيخ الحطَّاب قائلًا: «هذا إذا عشتُ إلى الشِّتاء.»

«أنت إذن هَرِم جدًّا؟»

فردَّ عليه بقوله: «لم يتبقَّ لي كُتب كثيرة لأقرأها!»

فتخيَّل الطِّفل الذي غمرته الدَّهشة والإعجاب مكتبة ريكاردو خزَّانًا للأكسجين، فإذا ما ارتبطت الحياة ارتباطًا وثيقًا بعدد الكتب التي نملكها فذلك يُفسِّر موت والديه المفاجئ، إذ لم يوجد في منزلهم ولو كتاب واحد! فقطع عهدًا على نفسه بأن يشتري كُتبًا كثيرة بماله، وسأل الحطَّاب: «مِن أين نشتري الكتب؟»

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

«من المدينة، في المكتبات، وقد نجدها عند الباعة المُتجوِّلين أحيانًا، لكن قلَّما تقع فيها على كُتب معروفة.»

«أرغب في الذَّهاب إلى مكتبة. أتعتقد أن هناك واحدة في «بويرتو ناتاليس»؟»

«إذن أنتما تتَّجهان إلى هناك؟»

«كلا، لكنني سأشتري حصانًا لأذهب إليها. عندي الآن كثير من المال فقد وهبني لويس نصف ميراثه.»

«لويس؟»

«إنه صديق، أو قُل كان صديقًا، فقد رحل يجوب العالم لأنه أحبَّ.»

«صحيح، يأخذ الحبُّ الناس بعيدًا!»

راودت ريكاردو ذكرى زوجته التي تعرَّف عليها في «هولندا» حين كان طالبًا يحلم أن يعيش كالأوروبيين، بعيدًا عن طبيعة «تشيلي» المُتوحِّشة، وسط المدن مُبلَّطةِ الشَّوارع، وسط المنازل المُتعالية النظيفة كتلك التي شاهدها على لوحات «فارمير»، لكنْ شقَّت عليه الغربة في النِّهاية، وكانت زوجته هي التي تبعته إلى هنا حُبًّا فيه.

«أتعتقد أن هناك مكتبة في «بويرتو ناتاليس»؟»

«بلا شكٍّ.»

كان باولو يُكدِّس حِزَمَ الحطب في سعادة إذ بدا له المستقبل مُشرقًا؛ فسيقضي بضع ليالٍ أخرى هنا عند ريكاردو، ممَّا يسمح له

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

برؤية الأطفال والرَّقص معهم على العُشب النَّدي، ثم سيرتحلان بعد ذلك نحو الشَّمال ليعود إلى المنزل المنعزل الذي ما إن يسترجعان أنفاسهما فيه حتى يتَّجها إلى «بويرتو ناتاليس»، وفي الأخير ليس من المُهم عدم حصوله على الشَّاة ما دام سيحصل على الكتب عوضًا عنها، فلو طلب من أنخل أن يصنع له مكتبة كبيرة يسندها بحجارة إلى حائط المنزل المائل لفعل ذلك. كم يروقه كلُّ هذا! فهو سيحيا حياة جديدة وجميلة ومريحة! وقد نسي مشاكل «بونتا أرياس»، ورغبته في الموت على شفا الجرف، ومُداعبات داليا الخدَّاعة، وخيانة لويس، والسَّفينة الحمراء وسِكين أنخل.

ومع نهاية اليوم حمَّل أنخل وريكاردو قاطرة الجرَّار بقطع الشجرة، ولم يبقَ إلا أكداس قليلة من النِّشارة، وما تجذَّر في الأرض من الجذع، وشظايا الخشب في المكان الذي تهاوت فيه الشجرة قاطعةً أغصان الصَّنوبر المحاذي. أطلق باولو زفرة ارتياح ورفع عينيه إلى السماء التي تورَّد نورها، هنا بالتحديد في الفجوة أعلى الشجر أحسَّ بنفسه مُنهكًا، نقيًّا مدينًا للرَّجلين؛ فبفضلهما لم يعد يخشى دخول الغابة، وقد يجرؤ على أمور أخطر، فقد بدا له من المُهمِّ أن يبلغ درجة يتراجع معها خوفه في هذا البلد الموحش، وفي هذه الحياة، وعلى هذه الأرض، وهكذا يكبر بنَصْر صغير تلو الآخر، وسأل ريكاردو: «ما مصير شجرتك؟»

«سيأتي أحدهم ليأخذها هذا المساء. رجل من مصنع الخشب.»

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

«لكن بعد ذلك؟»

«بعد ذلك، ستُقطع، فيمكن أن نستخرج منها عشرات الألواح المصقولة لنصنع بها هياكل المنازل أو الأثاث.»

قال باولو مُستنتجًا في مرح: «إذن سيحدث تحويلها!»

تأمَّل القطع الكبيرة المُستديرة من الخشب التي تأرجحت من حواشيها قطرات صمغ بلون الطِّين أو تميل إلى السُّمرة تُذكِّر بالدُّموع. شغَّل ريكاردو المُحرِّك وانطلق. إنها المرَّة الأخيرة التي سيعود فيها إلى المنزل مُحمَّلًا، لذلك أراد أن يضفي على هذه المسافة النِّهائية طابعًا احتفاليًّا بأن يتمهَّل في القيادة ويستمتع بكُل لحظة وكُل جزء وكُل سنتيمتر يقطعه، لكنه خشي أن يُثير ذلك حزنه، لذلك أحجم عن ذلك كُله واكتفى بترديد أبيات قصيدة في سرِّه:

«ما انفكَّ قلبي يقطع الحطب
مُنشدًا مع المنشار تحت المطر
ساحقًا البرد والنِّشارة والعطر»[*]

كان باولو يضحك كلما ارتجَّت العجلة على الطريق وهو جالس في مُقدمة الجرَّار فوق غطاء المُحرِّك وخلفه خيَّم على أنخل وريكاردو صمتُ رجلين مُنهكين راضيين بما أنجزاه، فقد تراجعت الأسئلة تحت وطأة التَّعب، ولم يعد ريكاردو يحسُّ لهيبها على لسانه، فأيًّا كان هذا الرَّجل، ومهما فعل في حياته الماضية فقد حلَّ

(*) بابلو نيرودا: «في ذكرى الجزيرة السَّوداء»

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

هنا على جذع الشجرة الميِّت ليثبت شرفه وشجاعته، وهذا يكفي ليحسَّ ريكاردو بالطُّمأنينة. وحينما وصلوا وقد تراءى لهم المنزل رأوا شاحنة مُتوقِّفة في ساحته تنتظر عودتهم، نزل منها رجل ضخمٌ أشقر يلبس زيَّ عمل أزرق، صاح قائلًا: «مرحبًا!»

أومأ له ريكاردو بإشارة، في حين أحنى أنخل رأسه بحركة لاإرادية ليُخفي وجهه. وعند الوصول إليه أوقف ريكاردو الجرَّار، فقال الرَّجل الضَّخم مُوضِّحًا: «لقد أرسلني مصنع الخشب.»

فقال ريكاردو مُستغربًا: «ألم يستطع ألفريدو أن يأتي بنفسه؟»

ردَّ الآخر قائلًا: «يجب أن يُنقَل هذا الخشب إلى «بويرتو ناتاليس» دون تأخير، إذ لن يُعالج في المصنع المعتاد، أتريد رؤية وصل الطَّلبية؟»

هزَّ ريكاردو رأسه مُوافقًا، ورافق الرَّجل إلى الشاحنة، فاستغلَّ أنخل ذلك ليقفز إلى الأرض ويأخذ باولو بين يديه: «تعالَ، فلْندعْهما يُسوِّيان أمورهما.»

حمل الصَّبي إلى داخل المنزل الآمن، فقد بدا واضحًا أن ريكاردو ينتظر شخصًا آخر. وكان أنخل يشكُّ في كلِّ شيء، إذ نادرًا ما كانت المفاجآت سارَّة للقتلة، فانتصب قُرب نافذة خلف السَّتائر ليُراقب ما سيفعله الضَّخم الأشقر، فرأى ريكاردو يتفحَّص أوراقًا ويُمضِي ورقة بنظيرتها، ثم يساعد الرَّجل على نزع السُّيور التي تشدُّ قطع الشجرة في المقطورة.

طلب باولو أن يعود إلى الخارج ليحضر عملية نقل الخشب

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

إلى الشاحنة، فصدَّه أنخل عن ذلك بنظرة حازمة. رأى الصَّبي يدي أنخل تُسرعان إلى صدره وتحومان كحشرات هائجة حول نور ساطع، أمَّا أصابعه فكانت كأرجل الجراد، أو كلَّابات مُتحفِّزة للانقضاض على مقبض السِّكين، ففهم أنه يعود إلى سالف عهده، لذلك هزَّ باولو كتفيه واتَّجه إلى الأريكة الوثيرة وتكوَّر فوقها، وبعد برهة تحرَّكت الشاحنة وسُمِعَ صوتها وهي تبتعد على الطريق حاملة معها الشجرة الأخيرة ومخاوف أنخل.

دخل ريكاردو المنزل مُطأطأ الرَّأس مهمومًا ممسكًا بيده نظير وصل الطَّلبية، لكنه ابتسم ووضع الورقة على طرف الطاولة حينما رأى الصَّبي مُنكمشًا فوق الأريكة، وهذا الرَّجلَ الغريب الفظَّ واقفًا قُرب النافذة، فأدرك قدر تعلُّقه بهما بسرعة، وخصوصًا باولو، وقال: «أشكر لكما إعانتي في عملي، سنشرب هذا المساء نخبَ الأيام الخوالي ونخب تقاعدي.»

وتفطَّن إلى أنخل ينظر إلى الورقة على الطاولة فأضاف قائلًا: «لا تشغلْ بالك، فكلُّ الأمور قد سُوِّيت، لقد هَرمتُ وتغيَّرت الأشياء، فمصنع صديقي ألفريدو للخشب يُنَاوِلُ جزءًا من طلبيَّاته إلى مصنع آخر، وأنا سعيد كما ترون لأني توقَّفت عن العمل، ففي السابق كان ألفريدو يأتي فيشرب معي كأسًا في الداخل، ونتحدَّث قليلًا قبل أن نُسوِّي أعمالنا، لم أطمئن لهذا الفتى فتركته خارجًا.»

قال له أنخل: «حسنًا فعلت.»

فسأله باولو: «هل حملَ شجرتك إلى «بويرتو ناتاليس»؟»

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

«إي نعم، إنها طلبية خاصة، ويبدو أنها لإحدى مؤسَّسات المدينة، لم يعد هذا الأمر يهمُّني الآن.»

نزع ريكاردو قُبَّعته وسُترته الجلدية ثم التفت من جديد إلى أنخل وقال: «يُمكنكما أن تبقيا أطول مُدة تريدونها. فأنتما لا تُزعجانني.»

فردَّ عليه أنخل: «سنعود من الغد إلى منزلنا.»

«ما الذي يستدعي عودتكما إلى المنزل؟ مواشٍ؟»

فقال باولو: «لا، فقد نفقت عنزاتنا بعد أن هَرمتْ. كما مات ثعلبي أيضًا، وقبلهما وا...»

فقاطعه أنخل: «كلُّ ما في الأمر أنه لدينا ما نفعله.»

تحسَّر باولو على عدم البقاء في هذا المنزل الموجود على أطراف الغابة لمُدة أطول، ورأى أن ريكاردو يشاطره الشُّعور نفسه، لكنه لم يُرد أن يُغضِبَ أنخل بسؤاله عن سبب قراره هذا.

تنالوا على العشاء في صمت قطعةً من لحم أيلٍ يحتفظ به ريكاردو للمناسبات السعيدة. بدت أعينهم في نور الشُّموع المُتأرجح تُحرِّكها حياةٌ غريبةٌ حُرة وكأن حركات أرواحهم المضطربة قد انعكست في أحداقهم.

قال ريكاردو مُتحسِّرًا وقد وضع شوكته على الطاولة: «إنه ليوم مميَّز، إذا غادرتما في الغد أودُّ...»

نهض بوجه ورديٍّ كالشَّفق الصَّيفي، وأشار إلى باولو وأنخل

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أن ينتظراه، ثم توارى في غرفة مجاورة، فهمس باولو إلى أنخل: «سيظلُّ وحيدًا عندما نُغادر المكان. هل تعتقد أنه سيموت؟»

مسح أنخل فمه بطرف منديل من القطن. هو يعرف الموت جيدًا، لكنه لا يعرف منه إلا عنفه وطريقته في حصد الأرواح الفتية بالأمراض التي تنهشها أو السِّكين التي تُغمَدُ فيها، فهو لم يرَ قَطُّ أحدًا يقضي نحبه ببطء كأنه ينام.

فقال لباولو يُطمئنه: «يمكننا العودة يومًا ما، سينتظرنا ريكاردو.»

بعد لحظة عاد الشَّيخ الحطَّاب حاملًا بين ذراعيه صندوقًا كبيرًا، ودون أن ينبس ببنت شفة وضعه على إحدى الطاولات المُستديرة ثم فتحه، تساءل باولو عن الكنز الجديد الذي سيكتشفه، أسفر رفع الغطاء عن آلة غريبة، مدَّ ريكاردو خيطها الطَّويل الدَّقيق الملفوف ووصله بالكهرباء وتمتم قائلًا: «آمل أنه ما زال يعمل، فهو لزوجتي، ولم أستعمله منذ سنوات.»

وأخرج من عُلبة وهو يتكلَّم قُرصًا كبيرًا أسود لمَّاعًا وضعه فوق الآلة.

فتح أنخل عينيه ولم يرفع بصره عن باولو، وحينما أدار ريكاردو ذراع الفونوغراف القديم حبس أنفاسه، فهو يعرف أن باولو لم يستمع قَطُّ إلى الموسيقى، ولا حتى إلى صوت ناي يُتَّخذ من القصب، أو حتى صوت جلجل، لا شيء غير صخب الرِّيح العنيف الذي يتلاعب بمنزله هناك في الأرض القاسية.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أصدرت الأسطوانة بعض الصَّرير والخشخشة، نهض ريكاردو مرَّة أخرى وإصبعه على شفتيه يكاد يغمض عينيه في صمت.

وفجأة اجتاحت الغرفةَ أصواتٌ مجتمعة لآلات الكمان والفيولونسيل، كانت ترنيمة طويلة مُعزَّزةً بنقرات بطيئة لأرغن كنسي.

ظلَّ باولو جامدًا.

كانت الأوتار تتماوج، صعودًا ونزولًا، وتحوم، وتنطلق، وتتقاطع، في حين يواصل الأرغن مسيرة موكب جنائزي وقور بطيء. بدت هذه الموسيقى حزينة وتفيض أملًا في الآن نفسه، دنيوية وسماوية، ثقيلة وخفيفة، تختزل في ذاتها كلَّ ما فهمه باولو من الحياة في الأيام الأخيرة. كان يرتجف وهو جالس على الكرسي زائغ العينين.

عرف في ترنيمات هذه الموسيقى نعومةَ وبر ثعلبه ودفء الشَّاة، ولكن أيضًا خيانة لويس، وكلَّ الحجارة والحصى في الطُّرق التي تتعثَّر فيها وتُضنيك. لم يعد يرى أنخل، ولا ريكاردو، ولا أثاثَ الخشب المطلي، ولا الشُّموع؛ فقد طفت الذِّكريات أمامه بفضل الموسيقى، غدت كلُّ ترنيمة خطافًا يسحب ما دُفن في نفسه إلى سطحها، وكأنه أضحى بحرًا أو نهرًا.

رأى أنخل الدُّموع تتحدَّر على وجنتي باولو، ورأى الرَّجلَ الهَرِم واقفًا إلى جانب فونوغرافه جامدًا وقد استسلم لروعة الموسيقى تخترقه.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

بسط القاتل راحتي يديه الكبيرتين على رُكبتيه وقد أضحى هو بدوره فريسةَ سحر الأرغن، وآلات الكمان، والإيقاع الاحتفالي المُنتظِم، والتَّناسق البديع، وبدا كلُّ ذلك وكأنه يرتفع بقلبه إلى السماء. كان ما سمعه جميلًا ومُختلفًا عمَّا عرفه من قبل... فأطلق زفرة اهتزَّ لها صدره.

مرَّت دقائق عِدة تركوا فيها الموسيقى تنساب لتحتضنهم وهم صامتون، فَرَاقَ الجوُّ في المنزل وهدهدت قلوبَهم طُمأنينة سكنت لها المواجع. ودَّ أنخل لو كان قد عاش هكذا إلى الأبد يحفُّ به الجمال والهدوء بعيدًا عن الناس والمدن، بعيدًا عن حانات الأنوار الساطعة، وبعيدًا عن الصِّياح والتَّدافع، لماذا لم يكتشف هذا إلا الآن؟

ألمَّ به فجأة غمٌّ شديد انعقد له حلقه، ورأى أن هذه الموسيقى قد بلغته بعد فوات الأوان، وأنها لن تخفِّف عنه أبدًا عبء جرائمه وحماقاته.

لكن ماذا عن باولو؟

نظر إلى الصَّبي الذي تغيَّرت سحنته وارتعشت يداه، فباولو لم يفته الأوان بعد! أمَّا هو، أنخل، فليس له الحقُّ أن يحرمه من كلِّ هذا، فبعد أن اجتثَّ هذا الصَّبي من وحدته وجب عليه الآن أن يُطلقه.

كتم أنخل زفرة، واتَّخذ قراره في لحظات قليلة؛ سيُودِعُ باولو لدى ريكاردو، إذ من البديهي أنه إذا توجَّب عليه أن يُثبت ولو

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

مرَّة واحدة أنه أحبَّ في هذا العالم فسيكون هنا، في هذا المكان وعلى الفور، سيمنح هذه الفرصة لباولو، وسيهديه إمكانية حياة أفضل، ولن يجرَّه معه إلى مكان أبعد في هروب غير مُجدٍ سيعود عليه بالوبال.

حين سكتت الموسيقى، قطع ريكاردو التيار عن الفونوغراف، ولفَّ الخيط ببطء، وأعاد الأسطوانة إلى عُلبتها، ثم أغلق غطاء الصُّندوق.

ظلَّ باولو مُسمَّرًا على الكرسي كالتِّمثال، وكان أنخل يختنق؛ فكلما امتدَّ الصَّمت هيمنت على ذهنه فكرة الفراق. سيبقى باولو مع الشَّيخ الحطَّاب، وكُتب المكتبة، وموسيقى الفونوغراف، وأسرار الغابة.

نعم، سيهدي باولو إلى ريكاردو، وريكاردو إلى باولو، فسيجدان معًا معنًى للوجود، أمَّا هو القاتل الصُّعلوك فسيهيم على وجهه في الطُّرق الوعرة وحيدًا ينوء بعبء النَّدم لتتحقَّق بذلك العدالة!

أراد أن يتكلَّم ليقول ما يجيش في صدره، لكنَّ باولو نهض فجأة مُقتربًا من ريكاردو وهمس له: «ما كان ذلك؟»

ابتسم الشَّيخ وجلس القُرْفُصاء أمامه ومدَّ له الأسطوانة، فأحنى باولو رأسه فرأى حُروفًا على عُلبتها فقرأها مُتهجِّيًا: «يو... يوهان... سباستيان... باخ.»

فقال ريكاردو مُوضِّحًا: «إنه اسم الرَّجل الذي ألَّف هذه الموسيقى، احتفظْ بها إذا أعجبتك، أنا أُهديك إياها.»

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

استدارت شفتا باولو للمُفاجأة، وضمَّ الأسطوانة إلى صدره، وبصادق عرفان بالجميل طبع قُبلة على خدِّ ريكاردو المُجعَّد.

صُعق أنخل؛ فباولو لم يُقبِّله قَطُّ، ولم يبدِ نحوه حنانًا يومًا.

كلُّ شيء انتهى على ما يُرامُ. يجب أن يتصرَّف حالًا.

استلَّ أنخل السِّكين المدسوسة في جيبه، فأحسَّ مقبضها بين أصابعه وقد غدا أملس من فرط الاستعمال والمعارك التي خاضها وكثرة ما قشَّر بها من البطاطس، ثم تقدَّم نحو باولو.

قفز ريكاردو وقد تنبَّه إلى النَّصل اللامع فصبغ وجهَهُ رُعبٌ غَشِيَ زُرقة عينيه، فشدَّ باولو وجذبه بشدة إلى الوراء وصاح: «حَذارِ!»

تسمَّر أنخل واقفًا أمامهما مُغطِّيًا إياهما بقامته الفارعة، كانا تحت رحمته، مخلوقَين ضعيفَين يستطيع أن يفعل بهما ما يشاء.

فنظر إلى باولو وقال: «خذها فهي لك.»

خيَّم صمت رهيب، وعكس نصل السِّكين أنوار الشُّموع، وكان ريكاردو يرتعش مُكفهرَّ الوجه وهو يضمُّ الصَّبي إليه.

أعاد أنخل قوله بصوت مُنكسر: «خذها!»

حرَّر باولو يده اليُسرى ببُطء من الأسطوانة، وبسط ذراعه وفتح راحته فتدحرجت السِّكين واستقرَّت فيها، فتمتم أنخل قائلًا: «افعلْ بها ما تريد، فلك أن ترميَها في قاع بئر، أو تتركها إلى الأبد في دُرج، أريد أن أنام الآن.»

ثم خرج من الغرفة ذليلًا.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

تجمَّد باولو في مكانه للحظات طويلة وأصابعه تقبض على الأسطوانة والسِّكين التي آلمته. كان قلبه المُمزَّق ينزف في صدره وتساءل: لماذا تجري الأمور هكذا؟ ولماذا عليه أن يختار دائمًا بين أنخل وريكاردو، وبين الموسيقى وأنخل، وبين الحُب والشِّعر، وبين الكلمات والحركات، وبين أن يرحل أو أن يبقى، وبين الواقع والأحلام، وبين الأحلام وأنخل، وهو الذي لا يطلب إلا أن يجمع بينها؟

وبعد لحظات سأل ريكاردو: «إذن ما قلته حقيقة؟ أنخل قد قتل أُناسًا؟»

هزَّ باولو رأسه مُوافقًا، لكنه يعلم أن الأمر قد انتهى، وأن أنخل لن يؤذي أحدًا بعد اليوم. ثقلت على يده السِّكين. في هذا المساء فهم ريكاردو أنه قد أخطأ، ويبدو أن فراسته قد وهنت مع تقدُّمه في السِّن حتى إنه لم يستطع النَّفاذ إلى حقيقة طبع أنخل أليجريا، لكنَّ الحقيقة ظهرت، فتحت سقف بيته يوجد رجل خطير يظلُّ سفَّاحًا حتى دون سكِّينه، لذلك بحث عن بندقية صيده القديمة قبل خلوده إلى النَّوم ليرقد معها.

غادر أنخل المنزل النَّائم في أواخر الليل، فقبل أن يحزم أمره، انتظر طويلًا بعينين مفتوحتين وهو مُمدَّد على سرير نجل ريكاردو المتوفَّى، حينما فتح الباب وأحسَّ برودة الليل تَلْفَح وجهه اقتنع أنه قد أحسن الاختيار، فيجب عليه أن يختفي ويُمْحَى من حياة باولو.

عَبَرَ باحة المنزل التي يُغطِّيها العُشب على أطراف أصابعه،

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ومرَّ أمام مستودع الخشب الفارغ، ثم أخذ طريقه نحو الشَّمال، كانت الطريق نفسها التي سلكتها العربة سابقًا حاملة عائلة ريكاردو إلى الحفل، وكان يُساوره إحساس غريب أنه يذهب إلى ملاقاتها، وكأنه كان يسعى إلى موعد سرِّي مع الأشباح.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

٢٢

لم تدَّخر شرطة «بونتا أريناس» جهدًا، فقد جابت الصورة التقريبية التي رسمتها داليا البلاد، وبفضلها وقع التَّعرُّف على هويَّة أنخل أللِيجريا المُجرم الخطير المطلوب في «تالكاهوانو»، و«تيموكو» و«بويرتو ناتاليس». وعلى الفور أوكل المُفتِّش العام هذه المهمَّة إلى أفضل رجاله وفِرَقهم.

أدلى والد داليا بشهادته قائلًا: «لم يكن أنخل أللِيجريا مُجرمًا فقط، بل نجح أيضًا في خطف طفل احتجزه وعنَّفه، كما أخضع مُواطنًا شهمًا من «فالباريزو» يُدعى لويس ساكوندا، وأرغمه تحت التَّهديد على اتِّباعه وتسليمه أمواله، ولحُسن الحظِّ نجحت داليا في إنقاذ لويس من براثن هذا الوحش ليُصبح حينها السيد ساكوندا في مأمن.»

استُجْوِبَ كذلك تُجَّارُ الخيول، فأفادوا بأنْ لا أحد منهم قد باع مطية للسَّفَّاح.

كانت هناك عمليات مُراقبة للهويَّات في الميناء والمطار ومحطة القطارات، وشُنَّت حملات مُداهمات للفنادق والحانات.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

وشهدت حركة المرور تعطيلًا كبيرًا على أطراف المدينة حيث أُقيمت نقاط تفتيش.

بعد ثلاثة أيام من البحث الحثيث دون جدوى أصدر المُفتِّش أمره بتوسيع دائرة البحث، إذ يبدو أن الرَّجل قد فرَّ نحو الشَّمال، فأخذت فرقتان راكبتان هذا الاتِّجاه مرفوقتَين بكلاب شمَّت اللِّحاف الذي نام فيه أنخل في الفندق، وكانت تنبح بشراسة وقد سال لُعابها في مُؤخِّرة الشاحنة الصغيرة وبدأت بذلك المطاردة.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

٢٣

استيقظ باولو مع الفجر، وعلى خدِّه الأيسر بُقعة حمراء طبعتها الأسطوانة التي نام عليها. أمَّا السِّكين فقد وضعها في حزام سرواله ظنًّا منه أنه سيستعملها لنحت الأغصان إذا ما أراد مثلًا أن يصنع منها لُعبًا.

خرج ليلقَى الأطفال في نشوة هذا اليوم الجديد، وقد امتدَّت طلائع أشعة الشمس عبر أخشاب المُستودع المُتباعدة في طرفه، ورسمت خطوطًا ذهبية تلألأت لها قطرات النَّدى. لم يستيقظ أنخل وريكاردو، ولم يحضر الأطفال هنا بعدُ، فلم يقوَ باولو على الصَّبر! كان هواء الصَّباح المُنعش يخز جلده لكنَّ ذلك لم يكن أمرًا مُزعجًا، فلن يحدث أيُّ أمر مُزعج في يوم كهذا! أخذ يمرح وحده حول المنزل دون أن يحدث هرجًا.

لمح في آخر الطريق لمَّا بلغ ظهر المنزل، سيارةً قادمة حَسِبها على ملك والديْ أصدقائه الجُدد فهرع إليهم تغمره السعادة للُقياهم.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أوقف السائق المُحرِّك وفُتح بابٌ، لكن بدلًا من الأطفال المُنتَظَرِين خرج من السيارة رجلان بزيٍّ نظاميٍّ، ودون أن ينطقا بكلمة انقضَّا على باولو وكمَّما فمه بأيديهما ليمنعاه من الصِّياح، ودفعا به إلى السيارة وكأنهما يدفعان كيس حَبٍّ، وهمس له أحد رجال الشُّرطة في أذنه: «أنت بخير الآن، نحن هنا، أنت في مأمن.»

ورأى آخر بقايا البُقعة الحمراء على خدِّه فخفض رأسه في حزن: «لقد عاش هذا الطِّفل محنة... وحان الوقت لنتدخَّل.»

أخرج رجلان كانا في مُقدِّمة السيارة مُسدَّسيهما، وتسلَّلا نحو المنزل، رآهما باولو يُطوِّقان المبنى، فأطلق من تحت اليد التي تسدُّ فمه صرخة مكتومة.

بعد قليل سمع طلقتيْ رصاص، وخُيِّلَ إليه أن رأسه هو الذي انفجر.

مرَّت بعض الدقائق، جوفاء ضبابية وكأن الزَّمن نفسه قد غشيته الدُّموع، ثم عاد أحد رجال الشُّرطة راكضًا مُضطربًا نحو السيارة وهو لا يزال يمسك مُسدَّسه في يده وقد تلطَّخ زيُّه بالدِّماء وصاح قائلًا: «لم يكن هو!»

سحب الرَّجل الذي كان يُكمِّم فم باولو يده عنه وفتح الباب، قفز باولو خارج العربة وقد انعقد حلقه.

فواصل الشُّرطي قوله وهو يلهث: «عثرنا على مُجرَّد عظم! تبخَّر أليجريا وجُرِحَ لوباز!»

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ترك الرجال باولو مكانه واتَّجهوا نحو المنزل ركضًا، أحسَّ الصَّبي وهو وحيد تحت الشمس بنبض الكون بأسره في قلبه. كانت الأرض تزمجر تحت قدميه، والسماء تهتزُّ أمام عينيه اهتزازًا ترنَّحَ له الفضاءُ والكواكب والنُّجوم وكلُّ شيء من باطن الأرض إلى أطراف الكون الشاسع.

قصد رأسًا نافذة غرفة ريكاردو، حيث وقف على أطراف أصابعه، فرأى عبر الزُّجاج ومن بين طيَّات السِّتارة المسحوبة إلى النِّصف جَسَدَ الشُّرطي لوباز المُنهار، أحنى رأسه، يد مُجعَّدة تقبض على بندقية صيد قديمة، تمدَّدت دون حراك قُرب رِجْلي الشُّرطي، رفع عينيه: تدافع رجال الشُّرطة الثلاثة الآخرون على عتبة الغرفة الصغيرة مُندهشين، ولسخرية القدر أحياء في وجه الموت والسَّتائر البيضاء واللِّحافات المُعطَّرة والأثاث المطلي. استدار باولو فانفتحت أمامه الطريق لِلَحظة كَكُوة بين عالمين، فمن ورائه الشُّرطة والموت وريكاردو المطروحُ أرضًا، ومن أمامه المجهول والوحدة والشَّمال، وربما أنخل.

مسح على مقبض السِّكين بأطراف أصابعه، ودون أن يُفكر أخذ يركض، ركض والخوف في أعقابه كما لم يركض يومًا من قبل، كان صدغاه ينقبضان كما المِلزمة، وتدلَّت شفته السُّفلى مُرتعشة.

لم يُرد أن يُفكر فيما جرى، ولا فيما وقع حقيقةً، فقد كان عقله في مواجهة الأشياء الحقيقية كحصان جامح استعصى على

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

التَّرويض؛ كلا، فهو لا يستطيع أن يُصدِّق أنهم قتلوا ريكاردو! كلا، فهو لا يريد أن يُصدِّق أن أنخل قد تركه في عتمة الليل! كلا، فهو لا يريد أن يُصدِّق أن تكون الحياة بهذا الجَور والألم!

كانت أمامه الطريق، والسماء، والحصى، والحَذرُ، وغصن ميِّت، وشجرة مُشوَّهة، و«تشيلي»، ومنزله في مكان ما في هذا الاتِّجاه. تعثَّر عديدًا من المرَّات فأدْمت الأرضُ القاسية راحتيه، وتوقَّف عديدًا من المرَّات ليخمد لهيب رئتيه ويُسكِّن الألم بين ضلوعه. وكان يتذكَّر وهو يلهث الموسيقى والقصائد والدُّموع وطُمأنينةً قد تلاشت، وأحسَّ بوحدة قاسية يستطيع معها اقتلاع قلبه بيديه.

لحقت به سيارة الشُّرطة بعد نصف ساعة.

ظلَّ جامدًا قُبالة الفراغ، أو ما يُسمِّيه بعضهم فراغًا. اقترب منه رجال الشُّرطة في هدوء كأنهم صيَّادو حمام، حتى لا يرعبوا قلبه. لم يروا منه إلا ظهره يهزُّه التَّشنُّج، ولم يستطيعوا أن يفهموا ولا أن يروا غير باولو يضحك هنا وحيدًا أمام الفراغ؛ فقد كانت عقول رجال الشُّرطة هؤلاء أبسط مِنْ أن ترى الأطفال الثلاثة بأقدامهم الحافية على العُشب وهم يتشقلبون ويلعبون لُعبة القفز على الخرفان لتسلية صديقهم، ورغم ذلك فقد كانوا مُستغرقين في المرح! وكان من المُمتع مشاهدتهم بشعورهم الشَّقراء الهولندية وثيابهم بنسيج الدَّانتيل الذي يتمايل مع الهواء.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

صرخ باولو حين أحسَّ بأيادي الشُّرطة تقبض عليه: «لا!»

فتوقَّف الأطفال بذلك عن اللَّعب وودَّعوه بإشارة واختفوا على الفور. أراد باولو أن يُدافع عن نفسه، فاستلَّ سكِّين أنخل ولوَّح به، لكنَّ أحد رجال الشُّرطة أمسك بذراعه، ولم تكن لباولو القوة الكافية فانزلقت أصابعه على المقبض المصقول، وسقطت السِّكين على حجر فتكسَّر نصلها.

قال قائد الشُّرطة وهو يوجِّه أوامره لرجاله بحمل باولو إلى السيارة: «نحن لا نريد لك الأذى.»

في السيارة دفع رجال الشُّرطة الثلاثة الأحياء والبُسطاء، بجسد الشُّرطي لوباز ليُخْلوا مكانًا لباولو في الخلف قُبالة البلَّور. كان الميِّت ينزف دمًا على المقعد شبه الجلدي، وكان رأسه لا ينفكُّ يميل إلى الصَّبي فيُثير فيه الرُّعب أكثر.

لم ينبس رجال الشُّرطة بكلمة ولم يعتذروا.

كانوا يحدِّقون في الطريق الوعرة بأعينهم الصغيرة السوداء، وكأنهم رجال ثلج ثُبِّتَت على رؤوسهم أزرار تحاكي العيون التي لا تُعبِّر عن شيء.

غرق الصَّبي إلى جانبهم في ألم عظيم غمره ولم ينتبهوا إليه، خصوصًا أنهم مُقتنعون بصواب ما يفعلون، ويرون أنفسهم فرسان النِّظام المحاربين للفوضى في هذا العالم الذي لا تبدو فيه الأشياء رغم ذلك بهذه البساطة.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

وانطلق صوت تصحبه خشخشة من ميكرفون بقُرب لوحة القيادة يُعلن أن الدَّورية الثانية قد ألقت القبض على أنخل أليجريا عشرين كيلومترًا إلى الشَّمال.

في هذا الصَّباح ظهر في طريق المنزل أربعة رجال أرسلتهم السُّلطات ونجحوا في تدمير سعادة هشَّة اعتقد الصَّبي أنها بين أصابعه، فبرهنوا أنهم أقدر وأقوى من قطعة الحلوى الصغيرة الصَّفراء، ورأوا أنهم حقَّقوا إنجازًا عظيمًا.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

٢٤

بعد بضعة أسابيع، رأى باولو أنخل للمرَّة الأخيرة في سجن «بويرتو ناتاليس» داخل غرفة بلا نوافذ طُليت بلون أخضر شاحب يبعث على الخوف والوحدة والضَّجر.

في البداية لم يستطيعا الكلام، ولم يجد كلٌّ منهما الألفاظ المناسبة التي تُعبِّر عمَّا يجيش بداخله.

انقضَت خمس دقائق من الصَّمت رأى فيها السَّجَّان الرَّجل وهذا الصَّبي متقابلَين جامدَين كتماثيل مُقدِّمة السَّفينة، فضرب على كتف أنخل وقال: «أسرع بالحديث فالوقت يكاد ينقضي.»

انتفض أنخل، ورمق الحارس بنظرة مُنكسرة مذعورة، ففي أسابيع قليلة فعل السِّجن فعله، فقد أصبح مُطيعًا، خوفًا من الضَّربات، أو وَهَنًا، أو استسلامًا، أو لعدم استجابة الجسم لما يُمليه العقل، ولم يعرف باولو فيه ذاك الرَّجل القوي الثابت الذي حمله لمُدة ساعات على طول الشَّاطئ الصَّخري تحت أعين القمر. ظلَّا ينظران بعضهما إلى بعض طويلًا وقد انعقدت حنجرتاهما.

فأعلن السَّجَّان قائلًا: «هيا، انتهت الزِّيارة.»

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

انحنى أنخل على باولو قليلًا كما تنحني الأُم على المهد، انتهت الزِّيارة وهو الذي يرى أنه لم يبدأ بعدُ، فهمس في الأخير قائلًا: «أتذكر؟ لقد سألتك أن تتذكَّر يوم مولدك عندما كنَّا نعيش في منزلك.»

هزَّ باولو رأسه مُوافقًا، إذ كان يذكر كُل شيء وكُل لحظة، وكُل كلمة، وكُل أطوار الطريق بكُل دقَّة.

واصل أنخل كلامه: «لقد أجبتني بأن ذلك كان يوم وصولي!»

قال السَّجَّان وهو يشدُّه من ذراعه في حزم: «انتهت الزِّيارة.»

كانت يدا أنخل مُقيَّدتين إلى ظهره، وشرع السَّجَّان في جرِّه إلى الخلف، فصاح باولو: «أجل.»

بكى أنخل وردَّ بصوت عالٍ: «إي نعم، وأنا كذلك! أنا كذلك وُلِدتُ في ذلك اليوم! فمنذ أن وقعت عليك عيناي أبصرت النُّور! أتفهم يا باولو؟!»

جذب السَّجَّان الأصفاد بشدة فابتلع بابٌ مُصفَّح أنخل وانغلق عليه كفكٍّ مُفترس، فعرف باولو أنه لن يرى أنخل بعد ذلك. هبَّ واقفًا، وأطاح بكُرسيِّه، وجرى نحو الباب وصاح مُلصقًا فمه به: «أنا أفهم! أنخل! أنا أفهم!»

سمع صوتًا بعيدًا تكتمه الجُدران السَّميكة يقول له شيئًا، ربَّما كلمة حُبٍّ، فردَّ كما اتُّفق صائحًا: «أنا كذلك!»

ثم لم يسمع بعد ذلك غير صلصلة المفاتيح في الأقفال وصرير قُضبان السِّجن المُوحش. ظلَّ باولو جامدًا ويداه مُلتصقتان

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

بالحائط خوفًا من أن يتناثر غبارًا إذا ما تحرَّك، أو يتفتَّت كقطعة حجر كلسي. تخيَّل عدد الجدران التي تفصله عن أنخل، هي عشرات، بعضها أسمَكُ من بعض، خضراء باردة كالثَّعابين.

دخلت امرأة القاعة ووضعت يدها على شعر باولو: «أأنت بخير؟»

فأجاب باولو بالنَّفي وهو يهزُّ رأسه.

«أتريد أن تأكل شيئًا؟»

«كلا، أريد أبي!»

جلست المرأة القُرْفُصاء أمامه، وقالت في حسرة: «أنت تعلم أن أباك قد مات!»

«أنخل...»

«أنخل ليس والدك!»

«إنه يُحبُّني!»

«لا أعتقد ذلك، فقد آذاك كثيرًا!»

كانت المرأة ترى أن باولو تأثَّر تأثُّرا شديدًا بالسَّنوات التي قضاها مع القاتل، فقد قرأت تقارير مُعاينة نفسانية تُفَسِّرُ جيدًا مسألة تعلُّق الضَّحايا بجلَّاديهم، هي قرأت عديد الأشياء لكنها لم تعرف شيئًا عن المشاعر التي ربطت حقًّا باولو بأنخل.

* * *

بعد مُدة قليلة دشَّنت مدينة «بويرتو ناتاليس» في موكب احتفالي محكمتها الجديدة؛ وهي بناية كبيرة مهيبة تتصدَّرها

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

درجات سلَّم تُفضي إلى باب عظيم فخم يتوسَّط تمثالي امرأتين أنيقتين، وقد أهدى رئيس البلدية هذا القصر لناخبيه حتى يفي بوعده الذي قطعه على نفسه لهم بمزيدٍ من العدالة، ومزيدٍ من رجال الشُّرطة، ومزيد من الأمن، ومزيد من الصَّرامة مع المُجرمين.

في قلب البناية كان رئيس البلدية فخورًا أمام مواطنيه وهو يكشف الهدية المفاجَأة التي أعدَّها لهم في سِرِّية تامة، وسط البهو الرُّخامي الفسيح.

رفع صوته وهو يستعدُّ لإزاحة السِّتارة التي تحجب المُفاجَأة وقال: «سيِّداتي، سادتي، ستفهمون حينما ترون ما يوجد تحت السِّتارة حقيقة رسالتي، ستفهمون مدى إصراري على جعل مدينتنا نموذجًا يُحتَذى به، وحَرَمًا آمنًا لنا ولأطفالنا!»

كان رئيس البلدية واثقًا من نفسه: فليس من العسير تبيُّنُ الخير من الشَّر، أو الطَّيِّب من الخبيث، أو الشُّرفاء من الفاسدين.

جذب السِّتارة فسقط القماش كما يسقط شراع السَّفينة حينما تُعْوِزُه الرِّياح، فأطلق الحاضرون صيحات إعجاب «أوه!»، فقال رئيس البلدية وقد راقه وقع ذلك على النُّفوس: «صُنعت هذه المِقصَلة بكاملها هنا من خشب غاباتنا الذي قطعه «أمهر حطَّابينا»! وقد عُولِج هذا الخشب في مصنع بالمدينة، وجُمِعت قطعها في إحدى ورشاتنا، إنها مِقصَلة «تشيلية» مائة بالمائة! هي لكم، ولتَكُنْ بذلك رمزًا لإصرارنا!»

دوَّى التَّصفيق وارتفع إلى قُبة البهو.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

في نهاية المطاف لقد تُوُفِّي ريكاردو لمَّا حلَّ أجله، ولن يعلم أبدًا فيما استُعمِلَتْ شجرته الأخيرة، وأيَّ مصير غريب لقيَته.

* * *

كان أنخل يقبع في السِّجن ينتظر محاكمته في زنزانة رائحتها العَفَن والبَول، وكان له الحقُّ يوميًّا في عشر دقائق من النُّزهة. كانت كآبة هذا المكان وحياته عامة تُضيِّقان عليه الخناق بلا هوادة على قلبه ورأسه، فصار لا يُفكِّر في شيء، وقد استُهزِئ به حينما طلب النَّفاذ إلى كتب المكتبة، إذ دُوِّن في مِلفِّه أنه أُمِّيٌّ. لم يتصوَّر أحد أنه قد تعلَّم لكثرة ما سمع من دروس لويس، وما تابعه من تحسُّن تحصيل باولو، ولم يتصوَّر أحد كم غيَّرته السُّنون التي قضاها مع الصَّبي؛ وعلى كلِّ حال لا أحد يُريد تصديقه في ذلك!

كان يشغل يديه بنحت اسمه على الجدران بقطعة حديد صغيرة اقتلعها من عارضة سريره، أنخل أليليجريا، أنخل أليليجريا، أنخل أليليجريا... كان ذلك الاسم الوحيد الذي حذق كتابته، هذا الاسم الذي ألبسته له الحياة، والذي يقرع أذنيه بكثير من السُّخرية.

في يوم ميلاده رسم قُرص حلوى وشموعًا في الجدار، فتطاير غبار رقيق من الجصِّ للحظات في الفضاء فدخل ما ظلَّ مُعلَّقا منه في جفنيه فانتزع منه دُموعًا.

حُكِمَ عليه من الغد.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

كان يبحث في قاعة الجلسة عن باولو من بين من جاؤوا لحضور المحاكمة، لم يكن هناك، فارتاح أنخل لذلك وتفطَّر قلبه في الآن نفسه، لكنه أخذ مكانه في قفص الاتِّهام صامتًا ودون أن يُظهر شيئًا مما يعتصر قلبه.

تحدَّث أناس، وقُلِّبتْ صفحاتُ حياته فعلًا بعد فعل، وجُنحة بعد جُنحة، وجريمة بعد جريمة، حتى أتَوا عليها كُلها، أو كادوا، فغدَا في آخر الجلسة كصَدَفَة فارغة.

وبعد بضع ساعات صدر الحكم: حُكِمَ على أنخل أليليجريا بالإعدام.(*)

عاد إلى زنزانته وتمدَّد على السَّرير الضَّيِّق. كانت حياته وراءه، ولم يعدْ يمتلكها، والشَّيء الوحيد الذي بقي له هو ذكرى سنوات الرِّيح والوحدة والسعادة بقرب باولو. أما الآن وهو بعيد عن الصَّبي فقد أصبح يخشى عليه وعلى صحته وعيشه ومستقبله، ولا أحد يريد تزويده بأخباره.

نظر إلى السَّقف وتمنَّى الموت في أسرع وقت ممكن، ليُنهي مأساته مع الهموم التي تَنخر رأسه. فدعا سجَّانًا وقال له: «أريد الموت!»

فردَّ الآخر هازئًا: «لكَ ما تُريد!»

«اقتُلوني إذن!»

هزَّ السَّجَّان رأسه، وأوضح له أن المحكوم عليه بالإعدام لا

(*) صدرت عقوبة الإعدام آخر مرَّة في تشيلي سنة ١٩٨٥، وأُلغِيتْ رسميًّا سنة ٢٠٠١.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

يُقتل هكذا بين عشية وضحاها، وأن التنفيذ لا يكون على الفور، فيجب على المحامين والقضاة وكَتَبة المحاكم أن يعمِّروا عديد الأوراق لتَتَّبِعَ الملفَّات بعد ذلك مسالك إدارية مُعقدة، ويجب الانتظار لأسابيع أو حتى أشهر، إذ لا تُقطَع الرُّؤوس هكذا بوحشية وإنما وفق ما تَنُص عليه القوانين.

* * *

كَفَلَتْ باولو عائلةٌ من «بويرتو ناتاليس»؛ فدخل المدرسة، وأكل جيدًا، وحظِي بحُسن الرعاية، ولم يُثِر المشاكل للناس الطَّيِّبين الذين أخذوا على عاتقهم تربيته، وكان هادئًا هدوءًا مُطلقًا.

ودون أن يعلم أحد كان يحتفظ تحت سريره في عُلبة بقطعة الحلوى الصَّفراء جالبة الحظ السعيد التي أصبحت لاصقة مُسطَّحة قذرة لطول ما بقيت في جيبه، فهذه الحلوى هي الذِّكرى المادية الوحيدة التي يحتفظ بها من حياته مع أنخل، فقَد خسر كلَّ الهدايا الأخرى: الثَّعلب، ولوحة داليا، ونقود لويس، والأسطوانة التي بقيت في منزل ريكاردو على الوسادة، حتى السِّكين خسرها، فهذه الهدايا وخصوصًا منها النُّقود قد تناثرت على الطريق كفتات الخبز لتجد مَن يلتقطها من الطُّيور العابرة.

كان يسأل نفسه ليلًا: أين لويس؟ كيف أصبح منزل ريكاردو المفتوح للرِّياح الأربع؟ وهل ما زال الأطفال يأتون للرَّقص على العُشب؟ وهل ما زالت شاة «بونتا أريناس» الجميلة حية؟ ومُتسلِّق الجبال البلجيكي؟ والمرأة اللَّطيفة في البنك؟

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

كان يطرح كُل هذه الأسئلة، لكن لم يعد له من أحد يمدُّه بالأجوبة!

طلب يومًا زيارة أنخل في السِّجن فأخبروه أن ذلك مستحيل؛ إذ لا تسمح قوانين سجن المحكوم عليهم بالإعدام بزيارة الأطفال. أضف إلى ذلك أنه لا يجب أن يُحِبَّ هذا الرَّجل! هذا القاتل! فليس الأمر طبيعيًّا!

لذلك، حبس باولو نفسه في غرفته، إذ لم يفهم معنى كُل هذا، وأخذ رأسه بين يديه وانتظر وانتظر ثم انتظر. وهل يُمكن من شدة الانتظار أن يتوقف قلبه عن الخفقان من تلقاء نفسه كآلة مُستعملة؟ وإذا لم يكن الأمر كذلك فما العمل لنكفَّ عن حُب شخص ما؟

وبعد زمن طويل أُعلم باولو في يوم أنه بلغ سن الرُّشد، ثماني عشرة سنة، كيف عرف الناس ذلك؟ غريب، هل يستطيع من الآن فصاعدًا أن يكون سيِّد نفسه ليذهب حيثما أراد ويفعل بحياته ما يشاء؟

خرج باولو عاري الرأس في صباح مُمطر بارد، فضرب في الطُّرق على غير هدى فحملته خطواته حتى السِّجن، صعَّد البصر في الأسوار العالية، وكانت السماء تسكب أمطارها عليه وعلى الأرصفة والأسلاك الشائكة، تذكَّر باولو فجأة أنه لم يعد طفلًا، وكان لهذه الفكرة وقعٌ غريبٌ عليه، فكأن هذا التَّحول قد حصل فجأة دون أن يستعد هو لذلك.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

توقَّف أمام واجهة بلَّورية لمحل مُغلق قُبالة مدخل السجن، وتأمَّل صورته فيها، لم يكن ضخمًا لكن عرض كتفيه وذقنه سيِّئة الحلاقة أعطياه مظهر الرجال، فتساءل إن كان أنخل سيعرفه.

ابتسم، وعبر الطريق واثق الخُطى، نعس في القمرة البلَّورية حارسٌ ليلي هَرِم، فنقر باولو على الزُّجاج قليلًا وقال: «أنا هنا من أجل زيارة سجين.»

انفرج جفنا الرجل قليلًا وقال: «ما اسمه؟»

«أنخل أللیجریا.»

«القاتل؟»

«أجل.»

مرَّر الحارس الهَرِم يده المُجعَّدة الصَّفراء على عنقه، فظنَّ باولو أنه يشكو ألمًا في حلقه.

فكرَّر الحارس قوله رافعًا حاجبيه: «أتريد رؤية أنخل أللیجریا؟ هل أنت من عائلته؟»

فقال باولو: «تقريبًا. كنت على صلة وثيقة به.»

قام الشيخ عن مقعده في بُطء، وقرَّب وجهه من كُوة الصوت وقال: «أنت محظوظ لأنك ما زلت على قيد الحياة، ولن يستطيع أن يقول لك كُلُّ من لاقى أللیجریا أكثر من هذا!»

اكتفى باولو بالابتسام، فقد أحجم منذ زمن طويل عن الاعتراف للنَّاس بأنه مَدين بحياته لأنخل، نعم حياته، وربما أكثر، فقال في إصرار: «هل أستطيع رؤيته؟»

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

فردَّ الحارس الهَرِم قائلًا: «كلا، فهو قد مات. إذ نُفِّذ فيه الإعدام في السنة المنقضية، ألم تكن على علم بذلك؟»

ظلَّ باولو مُسمَّرًا على الرصيف تنهمر الأمطار فوق رأسه برفق.

كلا.

لم يكن على علم.

ولم يرَ أحد ضرورة لإعلامه.

قال له الشيخ: «تعازيَّ، هكذا تسير الأمور، وتلك هي العدالة.»

تراجع باولو خطوة فبدا له السِّجن وقد أحنى ظهره تحت وطأة السُّحب، ونظر مرَّة أخيرة إلى الحارس الهَرِم وشكره على الإرشادات، واستدار ليعود أدراجه. لم يعرف ما سيفعله بحياته، لكن كانت له فكرة واضحة عن كيف سيقضي يومه.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

٢٥

لم يتغيَّر من الدِّيكور شيء. ظَل المشهد الجامد العدائي نفسه، بحصى الطريق والصُّخور الناتئة من الأرض والامتداد المُقفر الذي تسحقه السماء وتلوِّحه الرِّياح وتجلده الأمطار. هذه القطعة النائية من «تشيلي» التي يُصارع الرجال فيها ليظلوا واقفين هي مسقط رأس باولو.

اصطدم بقساوة المكان بعد الزمن الذي عاشه في المدينة، ولم يُصدِّق أنه قد وُلِد فيه. لم يحتفظ بغير ذكرى وحيدة من أمه؛ قامة نحيلة سوداء بارزة العظام، حملته في بطنها الضيقة غير المِضيافة. وتاريخه هنا، ومن الأكيد أن قلبه قد تكوَّن من هذه المادة الصُّلبة التي خُلقت منها الصُّخور.

مرَّ أمام أنقاض كوخ لويس الذي هجره مع أول الأمطار، ثم رأى منزله بنافذته الوحيدة المسدودة بالمِصْراع، وواجهته القصيرة وقد تداعت. توقَّف لحظات ليسترجع أنفاسه وكانت زخَّات المطر تلفح وجهه. تساءل: هل أصاب بعودته أو كان حَريًّا به لو احتفظ بالحلم وذكرى المكان. وعلى بُعد خطوات منه بدت

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الأَكَمة التي دُفن فيها والداه سليمةً لم ينبت فوقها شيء، ولو كان أعشابًا طُفيلية. كان باولو يجهد ليتقدَّم إلى قبر الثَّعلب الذي ظلَّ أجرد كذلك. ثم صارع الرِّيح ليبلغ باب المنزل، وحينما فتحه أحس بصعقة انتصب لها عُنقه. فتذكَّر الضفادع في إعدادية «بويرتو ناتاليس» التي يصلها بالكهرباء فتبدو حية رغم موتها.

كان داخل المنزل مُظلمًا وباردًا فتقدَّم فيه مُتلمسًا طريقه إلى النافذة ففتحها وفكَّ المِصْراع عنها فأثار تيار الهواء حفيف أوراق تطايرت. أغلق باولو النافذة من جديد ثم استدار وفهم مصدر هذه الأصوات. كانت هناك على الطاولة وسط الحجرة عشرات من الأوراق البيضاء المُستطيلة الصغيرة: إنها ظروفُ رسائلَ.

انخفض ليجمع ما تطاير منها مع تيار الهواء فتصفَّحها بعد ذلك تصفُّح ورق اللعب. أما باقي الحجرة فقد ظلَّ كما كان يذكره: المقعد والمدفأة والرَّف، وفي آخرها تلك الحُجيرة الصغيرة.

كيف بلغت هذه الرسائل هذا المكان؟ كان اسمه قد كُتِبَ على كلِّ واحدة منها بخط رقيق:

باولو بولوفاردو

وأمَّا عنوانه:

منزل في آخر الأرض، الأخير قبل البحر

فتح رسالة وقعت عليها يده فوجد فيها بطاقة بريدية تحمل صورة «مدريد» في إسبانيا، وعلى ظهرها أبيات من قصيدة لـ«فيديريكو جارسيا لوركا»، الذي لم يسعف باولو الوقت ليقرأ له.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أمَّا الرسالة الثانية فكان مصدرها «رانغون» في برمانيا، والثالثة من الصِّين، والرابعة من نابولي، والخامسة من مكسيكو، والسادسة من باريس... وعلى ظهر كل هذه البطاقات كتب الشخص نفسه قصائد لـ«بول ألوار»، و«لكيتس»، و«أراغون»، و«كيفادو»، أو «جول سوبارفيال».

ظلَّ باولو واقفًا قرب الطاولة مُنفعلًا، تمرُّ الرسائل بين أنامله لتسقط عند قدميه كلما تحرَّرت بطاقة من بين يديه. وفي النهاية غطَّت الرسائل المفتوحة حذاءه حتى كست قدميه وتناثرت على الطاولة ليبدو العالم قد رقد فوقها دون ترتيب. هو عالم من الألوان والشُّموس الغاربة على نهر «تاجة»، والثلوج المتساقطة على الساحة الحمراء، وهو عالم من انعكاس الضوء على مزارع الأرز، ومن الصحارى، والكثبان، والمدن المكتظة، والقطارات المزدحمة، والأديرة، والقصور، والصِّينيين على درَّاجاتهم، والمحيطات المُظلمة.

تحرَّك باولو وقد أحسَّ بدُوار، فجلس على المقعد، أنجز لويس مهمته، وهنا على هذه الطاولة التي سال فوقها الدم وجفَّ، وفي هذا المنزل الضائع التقتْ كلُّ هذه المدن، وكل هذه البلدان الرائعة. وكأن هذا المكان صار مُلتقى كُل الطُّرق، وكأن كلمات كُل شعراء العالم قد تواعدت تحت عيني الصَّبي، إذ كتب لويس دون كلل أغانيهم في الحُب والحياة والأمل والجمال والسُّكر، فكانت طريقة مُدهشة يعتذر بها.

احتضن باولو البطاقات، ووضع خدَّه عليها، وفي هذه اللحظة فُتح الباب، فصرخ وانتصب واقفًا، سمع صوتًا يسأل: «مَن هنا؟»

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

فردَّ باولو مُتحفِّزًا: «أنا.»

رأى امرأة تدخل المنزل مُتلفِّعة برداء واقٍ من المطر: «أأنت... باولو بولوفاردو؟!»

«أجل.»

«فقد عُدتَ إذن؟»

تفحَّصها باولو. كانت صَبية تورَّدت وجنتاها حتى احمرَّتا، وألصق المطر خصلة من شعرها على جبينها. تساءل عما سيردُّ به، فهل عاد أم أنه في زيارة عابرة؟ نظر إلى يدي الفتاة فرأى طرف ورق أبيض يطلُّ من تحت طيَّات ردائها، فقال لها: «سأوقد نارًا فالطَّقس بارد.»

نهض واتَّجه إلى الحُجيرة التي وجد فيها مخزونًا من الحطب الجاف كما كان يأمل. وعندما عاد إلى الحجرة وجد الفتاة في مكانها. ظلَّت ترقُبه وهو يعمل أمام المدفأة، وابتسمت حينما اشتعلت نارها.

قالت: «تساءلتُ كثيرًا إن كنتَ موجودًا.»

«إذن؟»

«تبدو كذلك.»

حرَّك باولو النَّار بالسِّطام فتطاير الشَّرر في مجرى مدخنة المدفأة.

اقتربت منه الفتاة وقالت: «خذ، وصلتْ أمس.»

كانت آخر بطاقة بريدية من لويس. فتحها باولو، ووجد أنها

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أُرسلت من «فالباريزو»، لم يكتب في ظهرها هذه المرَّة قصيدة.
ابتسم، فسألته الفتاة: «أفيها أخبار سارَّة؟»
«أحدهم يُهنئني بعيد ميلادي.»
«أهو عيد ميلادك؟»
«يبدو ذلك.»
جلست الفتاة إلى جانب باولو، وهمست له: «عيدًا سعيدًا...»
نزعت عنها الرِّداء، فبدا تحته أنها ترتدي زيَّ البريد التشيلي.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

Twitter: @ketab_n

www.kutub-pdf.net

خاتمة

اكتشف باولو في «تيروزا» روائع. كانت بنت الخمس والعشرين، صبورة، ذات ضحكة مُدهشة، وكانت لها درَّاجة صدئة تصرُّ وترنُّ في بهجة على حصى الطريق كلما عادت من جولتها.

في صباح مُشمس اتَّخذ باولو في نفسه قرارًا: جرَّ الطاولة على البلاط ودفع بها إلى الخارج، فتجلَّت تحت نور الربيع المُرتعش البُقعُ الحمراء من الدم بين أثلام الخشب العريضة. هرَع باولو إلى المنزل، وبحث بتوتُّر في الحُجيرة ثم خرج وبيده فأس أبيه. تعرَّق قليلًا وتنفَّس بجهد، لكنه كان مُصمِّمًا، فرفع الفأس فوق رأسه وانهال بها على الطاولة، فانغرست فيها عميقًا وشقَّتها مع الضربة الخامسة إلى نصفين كثمرة ناضجة، ومع السابعة تطايرت أرجلها شظايا. كان الطَّقس حارًّا فشرب باولو جرعة ماء من الدلو.

بعد ساعة من العمل تفتَّتت الطاولة إلى قِطع صغيرة جدًّا، ولم يحتفظ منها باولو بغير الدُّرج ليضع فيه البزال والشوكات. نظر إلى ما فعل فأحسَّ براحة، إذ تغيَّر حوله الضَّوء الخاضع لنزوات الرِّياح والغيوم. أعاد الفأس إلى مكانها وأخذ الرَّفش. تذكَّر وهو يتقدَّم نحو أكمات التُّربة الجافة تلك الليلة الظلماء التي أمسك

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

فيها مصباح العواصف ليُضيء المكان لأنخل في مساء الحَساء الأوَّل فبدا له أن ذلك قد وقع قبل قرن.

حفر إلى جانب قبر الثعلب، ورمى بقطع الطاولة في نقالة، ودفع بها على الحصى، ثم صب ما فيها في الحفرة، وقد انقبض حلقه كأنه في جنازة.

في هذه اللحظة سمع رنين درَّاجة تيروزا هناك على الطريق. فالتفت فرآها تُقبل مَرِحة مُتألقة، تتطاير خلفها حقيبة البريد الليِّنة الفارغة، فترك باولو الرَّفش وقد سألته تيروزا وهي تضع قدمها أرضًا قُرب الحفرة: «ماذا تفعل؟»

فردَّ باولو: «سأصنع طاولة جديدة.»

انحنت تيروزا قليلًا، ونظرت إلى قطع الخشب التي ترقد مُبعثرة في قاع القبر. كان الأمر غريبًا، لكنها تُحب باولو كما هو بغرابة أطواره، فقالت: «حسنًا سنأكل أرضًا في انتظار ذلك.»

ذهبت لتَرْكن درَّاجتها، وتركت باولو وحيدًا، فأخذ الرَّفش من جديد وردم الحفرة، وحينما أتمَّ ذلك سوَّاها قليلًا وهو يتذكَّر أنخل ويديه الكبيرتين. نادته تيروزا فقد حضر الغداء.

بعد مُدة، زارهما لويس، وقد وارى أباه الثَّرى أيضًا في «فالباريزو» فوق تلَّة تُشرف على الخليج، وهو الذي عاد من أجله إلى «تشيلي»، من أجل هذا الأب الذي لم يره منذ سنوات طويلة، والذي مات وحيدًا بعد أن وزَّع أبناء ونساء وقنينات شراب في أرجاء البسيطة.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

حدَّث باولو عن مقدار افتقاده لحبِّ هذا الوالد، والفراغ الذي تركه في حياته إلى حد اليوم. فقد سقطت داليا كنساء أُخريات في هذا الفراغ والعَدَم، وعبرنه دون أن يمنع سقوطهن شيء. لذلك عاد وحيدًا إلى «تشيلي».

واصل حديثه هازئًا: «رأيت إخوتي وأخواتي يوم الدَّفن. سمنت أختاي وأنجبتا أطفالًا وكانتا ضجرتين ضجرًا شنيعًا، مما أثار مخاوفي. أمَّا أخي ذاك الذي كان يحلم أن يُصبح مُمثلًا، فعلًا...»

وأخفى لويس ضحكته براحة يد: «... فعلًا... والحقيقة أنه أصبح مُمثلًا! كنت أجهل ذلك لأنني لا أُشاهد التلفاز، لكن كان هناك عديد من المُعجبين في انتظاره عند مخرج المقبرة ليحصلوا منه على توقيعه.»

قال له باولو: «ادخل، لا بدَّ أنك عطشان.»

حينما دخل المنزل، دُهش لويس من التَّغييرات التي أدخلها باولو عليه.

«طاولة جديدة؟»

فرد باولو: «لقد ماتت الأخرى!»

فاعترف لويس قائلًا: «هذه جميلة جدًّا.»

وقد أعجبته كذلك المكتبة التي صنعها باولو بيديه، فوضع فيها كتابًا هديةً يتحدَّث عن بحَّارة ألقي بهم برًّا وسط العواصف، وفيه سمع باولو للمرَّة الأولى صوت الشعراء. فتمتم باولو وهو يمسح بأصابعه على غلافه: «أعرف الآن كل الكلمات.»

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أطلق لويس زفرة ودار في الحُجرة رافعًا رأسه، مُتفحصًا البطاقة البريدية المُعلَّقة إلى الجُدران وكأن حياته قد انتهت في مُتحفٍ؛ فضاعت الذِّكريات وانمحت المشاعر واستعاد كل شيء مكانه الحقيقي، فالعالم والبلدان التي جابها لا تُضاهي أبدًا اللحظات التي قضاها قديمًا في هذا المنزل المُنعزل، يتصارع مع ضربات الرِّياح وغضب أنخل المكتوم والثَّعلب والثَّعابين، ولا لحظات الطُّمأنينة وهو يُدخِّن على العتبة مع الغروب.

فباولو يملك شيئًا نفيسًا، هو مكان على هذه الأرض أحسَّ حقيقة أنه منزله وهو الذي يُعيد بقساوته الإنسان إلى مكانه الطبيعي في الكون.

وقبل أن يرحل أنزل لويس من سيارته العديد من صناديق الشَّراب التي ورثها عن أبيه. كانت خمورًا تشيلية، وفرنسية، وإسبانية، وإيطالية، وكلها أجود من بعضها البعض، فسأله باولو: «إلى أين تذهب الآن؟»

ابتسم لويس: «لم أعرف قَطُّ أين أذهب.»

وأراد أن يُضيف شيئًا لكنه أحجم. رُبما عَنَّ له الحديث عن أنخل، ومهما يكن من أمره، فقد اعترف باولو بجميل صمته، فتمتم لويس رغم ذلك قبل أن يركب سيارته: «أنا آسف!»

اختفى بعد ذلك، في آخر الطريق، مُلوِّحًا بيده التي أخرجها عبر النافذة مُودِّعًا.

لم يعد باولو لرؤية منزل ريكاردو موركا، لكنه كلما دخل الغابة، فكَّر فيه وفي ضربات الفأس التي سمعها مع أنخل لأول

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

مرَّة. وتعوَّد أيضًا أن يُشعل موكب شموع، كلَّ مساء، على الطاولة لإحياء ذكرى هذا الرجل وأشباحه. كان يخرج أيامًا عديدة مُنفردًا في جولات، حتى يبلغ أقصى اليابسة حيث يبدأ البحر، فيقف صامتًا أمام صخب المياه الباردة، يسأل نفسه بإلحاح عمَّا يشدُّه إلى الحياة، فلا يجد لذلك جوابًا غير شعور حتميٍّ راسخ بأنه موجودٌ على الأرض رغم كل شيء، حيٌّ بديهيًّا كصخرة، فيرضى بذلك.

من وقت لآخر، يصل عبر الطريق الوعِرة غريب، يكون عالمًا، وفي أغلب الأحيان جيولوجيًّا بعُلبة الحصى، وأحيانا فَلكيًّا باحثًا عن ليل أدهم، أو شاعرًا يقتفي أثر الرُّوح التشيلية، أو بائع مُغامرات يرصد المكان.

كان باولو يُحسِن استقبالهم، ويضحك حينما يرى الدهشة ترتسم على وجوههم بمُجرَّد أن يكتشفوا المنزل من الداخل: بمكتبته، وسجاداته، والشُّموع، والبطاقات البريدية، والستائر النظيفة... ثم يسقي ضيوفه كأسًا من النبيذ من مخزون «ساكوندا» ليستمتع بسماع أحاديثهم؛ فقد كانوا يحملون إليه أصداء العالم وهمومه واضطراباته. كانت الكلمات المُرعبة التي يتلفَّظون بها تصعد، بغرابة، كالفقاقيع إلى سقف الغرفة فتصطدم به لتنفجر وتتلاشى؛ فالحروب، والمجاعات، والانقلابات، والأوبئة، وتدفُّق الأموال، والإضرابات، والحوادث، وأعراس الأُمراء، وسباقات السيارات، كلُّها تأتي لترتطم بسقف المنزل الصغير، في أقصى الأرض، وتفقد فيه شيئًا من أهميتها.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

في النِّهاية يصمت الضُّيوف لينصتوا إلى نُباح الرِّيح، خلف بلَّور النوافذ، ويحتسوا النبيذ، بينما تجول أعينهم على حافات الكتب المرصوفة فوق الرفوف.

انقضت سنوات أُخرى.

وضعت تيروزا فيما بعد مولودًا أُنثى، فاقترح باولو عليها أن يُسميَّاها «أنخلينا»، فلم ترَ في هذا الاسم غير أجنحة الملائكة وهالاتهم فقبِلته دون جِدال.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

Twitter: @ketab_n

www.kutub-pdf.net

كان هناك طفلٌ، وُلِد لأبوين لم يُحبا بعضهما قَطُّ.
نما الصَّبي كما كانت الحشائش تنمو حول مزرعة والديه؛
يُلطخه الطِّين وتضربه الرِّياح حتى صارت أذناه مثل الجناحَين.
كان اسمه «باولو».
«باولو بولوفاردو».

وفي يوم عادي من أيام آل بولوفاردو، كان باولو يركض وراء
الثَّعابين عندما رأى غريبًا على الطريق المؤدية إلى المزرعة.
مَن هذا؟ هل يُشبه أحد المُسافرين السابقين الذين صادف
أن مروا بهذه المزرعة المعزولة؟ مُغامر أم شاعر أم عالم؟
لا... إنه «أنخل أليجريا»، نصَّاب ومُحتال وقاتل!

هذه رواية جميلة تحكي عن البراءة والشَّر، من خلال
ثلاث شخصيات تبحث عن حقيقة ما في داخلها.

www.bqfp.com.qa
ISBN 9789992179024
90100
9 789992 179024
دار بلومزبري - مؤسسة قطر للنشر
BLOOMSBURY QATAR FOUNDATION PUBLISHING
مؤسسة قطر
Qatar Foundation

www.kutub-pdf.net